

استشارات أُسرِيّة

مجاهد مأمون ديرانية

مُشكلات تربويّة



للترجمة
والنشر

الأجيال
AJYAL Publishers

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

استشارات أُسرّية

مجاهد مأمون ديريّة

مُشكلات تربويّة



للترجمة
والنشر

AJYAL Publishers

الطبعة الإلكترونية الأولى

٢٠٢٥

هذا الكتاب وَقَفَّ لله تعالى

يجوز تداول هذا الكتاب -بإذن المؤلف-
للاقتناء الشخصي أو لأغراض تعليمية ودعوية
وتربوية غير ربحية

وأنا أسمح بقراءته وطباعته وبالاقتباس منه دون
إذن مسبق، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ ينشر أي شيء فيه
احتساباً فلا أطلب منه سوى أمرين: الدقة في
النقل، فلا يبدّل في النص شيئاً بل ينقله بأمانة
كما هو، وأن ينسب القول إلى قائله باسمه
الصريح ويدعو له، فإن دعوة بظهر الغيب أنفع
لي من ذهب الأرض.

الموقع الإلكتروني للمؤلف

<https://mujahed-dira.com>

حساب المؤلف في فيسبوك

<https://www.facebook.com/MujaDira>

مُقَدِّمَةٌ

تعريف بهذه المجموعة

شاركت زماناً بتحرير باب المشكلات التربوية والأسرية في عدد من المواقع والمجلات، فاجتمعت بين يديَّ طائفةٌ من المسائل التي دأبتُ على الإجابة عنها فيها، ومنها جاءت مادة هذا الكتاب والكتب الثلاثة الأخرى في مجموعة «الاستشارات الأسرية» التي أنشرها اليوم.

وقد كان منهجي الذي ألزمت به نفسي في الإجابة عن تلك الأسئلة أن أختصر إذا كانت المشكلة مما هو نادر الوقوع ولا يهتم جمهور القراء، وأتوسع كلما وجدت مشكلة عامة يعاني منها أكثر المربين أو مشكلة شائعة بين الشبان والشابات أو متكررة بين الأزواج والزوجات، فمن أجل ذلك سيجد قارئ هذه الكتب أحياناً بعضَ التطويل في الحل الذي أقدمه لمشكلة من المشكلات، وعذري ما ذكرت.

ولما انصرفت إلى جمع مادة الكتب الأربعة

وجدت في بعض الأسئلة تكراراً أو تشابهاً،
فحرصت على اجتناب المكررات وانتخاب أوسع
الردود وأفضلها، ومع ذلك فإن الكتب لم تخلُ
من شيء من التكرار الذي لا يكاد يمكن اجتنابه،
فليعذرني القارئ على مثله.

وأخيراً اجتهدت في توزيع المشكلات على
الأبواب فجعلتها في أربعة كتب مستقلة: مشكلات
تربوية، ومشكلات زوجية، ومشكلات شبائية،
ومشكلات اجتماعية عامة.



وقد جمعت هذه المشكلات كلها تحت عنوان
جامع هو «استشارات أُسْريّة» لأن ما قدمته فيها إنما
هو رأي وليس حكماً قضائياً، ولو كنت قاضياً لوجب
عليّ السماع من الطرفين، فإنني لا أقضي -في أمثال
هذه الاستشارات- لطرف على طرف، بل أقدم الحل
وأسعى إلى الإصلاح معتمداً على التفاصيل التي
تصلني من أصحاب المشكلات. وربما أفضتُ في
الجواب وتوسعت فيه لأن الذي يعاني من مشكلة
معقدة يغلب أن يعجز عن الاستفادة من الوصفات
المجمّلة ويحتاج إلى إرشاد تفصيلي لحل مشكلته.

ثم إن بعض الأسئلة كانت مختصرة لدرجة الغموض، وكثيراً ما ذكّرتني بالبرقيات التي كان الناس يتواصلون بها في الأيام الخالية، يوم لم تكن في الدنيا هواتف محمولة (جوّالات) ولم يكن التواصلُ الإلكتروني الحالي الذي كان بمقاييس أمس شيئاً من الخيال. في تلك الأيام كان المؤلف أن يرسل الواحد إلى الآخر برقية يضع فيها ما شاء من أخبار، ولما كانت كلفة البرقية بعدد ما فيها من حروف فإن المرسل كان يجتهد في ضغط حجمها وتقليل كلماتها، فتجيء البرقيات أقرب إلى الألغاز منها إلى مبسوط الكلام الذي يألفه الناس في مراسلاتهم الورقية.

ولو علم السائلون أن الجواب يزداد طولاً وصعوبة مع قصر السؤال وغموضه لجادوا ببعض التفصيل، فالذي يجيب عن هذا النوع من الأسئلة لا يملك بلّورة سحرية ينظر فيها فيعرف ما خفي من توضيحات وتفصيلات، فيُضطرّ إلى افتراض شتى الاحتمالات وتقديم الأجوبة عنها جميعاً.

لذلك أنصح الذين يرسلون المواقع الاستشارية طالبين النصح والتوجيه: اشرحوا مشكلاتكم شرحاً

وافياً ولا تعرضوها عرضاً موجزاً مُخلاً يفتقر إلى التفصيل والوضوح، لأن المستشار يحتاج إلى التفاصيل لكي يفهم المشكلة فهماً جيداً فيقدم لها الحل الصحيح، وكما يقول علماء الإدارة: "إن الخطوة الأولى في حل أي مشكلة هي فهم المشكلة واستيعابها بكل ما فيها من جزئيات وتفاصيل".

وتتبع هذه النصيحة نصيحة أخرى مهمة: تعلّموا الكتابة الجيدة لأن الفهم الجيد يعتمد على التعبير الجيد، ويؤسفني أن أقرر أن كثيراً من الراشدين الذين أنهوا كل مراحل التعليم وتخرجوا في الجامعات لا يتقنون الكتابة ولا يحسنون التعبير، وما أكثر ما أمضيت في قراءة رسائلهم الوقت الطويل وأنا أفكّ ألغازها وأستخرج معانيها من بين سطورها الدالة على أمية كاتبها والمغارقة في العُجمة والعامية، ثم بذلت جهداً كبيراً في تحريرها قبل نسخها هنا بالصورة التي ترونها في هذا الكتاب.

* * *

بقي أن أقول -ختاماً- أنني بذلت أقصى الجهد واستنفدت غاية الوسع في الاجتهاد واتقيت الله في كل حرف كتبته، وكثيراً ما ترددت وأنا أكتب الجواب

خشيةً أن أضربَّ به ولا أفيد أو أفسد ولا أصلح لا قدَّر الله. ولقد سألت الله الإخلاص والتوفيق وأنا أجيب السائلين مستمداً منه العون أولاً، ثم معتمداً على ما أملكه من ثقافة أكاديمية في علم النفس وعلم التربية (وهو كثير بفضل الله) وعلى خبرة نصف قرن في التربية والتعامل مع الناس وحل المشكلات.

ومع ذلك كله لا أدعي أن أجوبتي هي الحلول المثلى والصواب المطلق لأن الاجتهاد في مثل هذا المقام ليس له حدود، ولربما قرأ أحد القراء جوابي فقال: "لو كنت أنا المسؤول لأجبت السائل بكذا"... ثم يكون جوابه أفضل من جوابي حقاً وأقرب إلى الصواب.

أسأل الله أن ينفع الناس بما قدمت وأن أجده في الميزان يوم تُوزَن الأعمال.

مجاهد

محرم ١٤٤٧

حزيران ٢٠٢٥

مُشكلات تربويّة

غيرة الطفل من أخيه الرضيع

رزقنا الله طفلاً جديداً منذ شهور، وقد كنا قلقين في البداية -أنا وزوجي- من ظهور أعراض الغيرة لدى ابننا البكر الذي يبلغ الثالثة الآن، ولكن الشهور القليلة الأولى انقضت بسلام فلم يحدث أي شيء ذي بال. ظننا عند ذلك أن الأمور ستسير على ما يرام، ولكن منذ نحو شهرين بدأ الكبير بإظهار سلوك عدواني تجاه أخيه الصغير، وصار ينقض عليه أحياناً فيضربه ويكيه بكاء مُراً. وأنا بدوري صرت أعاقبه فأضربه بقوة كلما اعتدى على أخيه، وقد ظننت أن عقابي سيردعه فيوقفه عن السلوك العدواني، ولكن الذي حصل هو العكس، فقد زاد الاعتداء حدة وتكراراً، وأصبحت أحس بالعجز عن معالجة المشكلة. ماذا أصنع؟

الذي ذكرته عن سلوك ابنك البكر ليس سوى وصفٍ نموذجي لعرض الغيرة عند الأطفال الصغار، أمّا ما صنّعه لمعالجة المشكلة فهو الحل التقليدي الذي تميل إليه أكثر الأمهات، فما دمت قد جرّبتَه فلم يزد الأمر غير سوء فهل تحبين أن تجربي طريقة مختلفة؟

(١) لنبدأ بالاعتراف بأن الغيرة (في حدودها الطبيعية الموصوفة هنا) شعور طبيعي ينبغي أن نفهمه ونحسن التعامل معه. وكيف لا يغار الطفل وقد كان نجم البيت الذي يُغدّق عليه الحب بلا حساب ويتلقى الرعاية والاهتمام وحده لا يشاركه فيهما أحد، ثم انقلب الحال فاحتل محله ذلك الوافد الجديد وانتزع منه أكثر اهتمام أبويه وجُلّ وقتهما، فلم تبقَ له غير بقية مما كانا يمنحانه في الماضي من الحب والعاطفة والاهتمام؟

(٢) الطفل الصغير لن يحسّ بهذه المشاعر جميعها منذ اليوم الأول لوصول الوافد الجديد، فهذا المخلوق الصغير سيبدو له -في البداية- أشبه بلعبة أو بعض من مقتنيات البيت وأغراضه، وهو يحس بإحساس محايد تجاه هذه الأشياء. ولكن الحال سيتغير مع الوقت حين يبدأ بإدراك الحجم الحقيقي لهذه «الكارثة» وحين يحيط بأبعاد التغير الذي أصاب العائلة والاختلاف الذي طرأ على البيت الذي يعيش فيه.

(٣) الذي سيحدث بعد ذلك ليس أكثر من تبني الطفل لحالة «الدفاع عن النفس»، حيث سيسعى

إلى استعادة موقعه السابق واسترجاع مكانته القديمة.
وحيث إن السبب الوحيد في المشكلة هو الوليد
الجديد فلا بدّ من معاقبته والانتقام منه. وبذلك يبدأ
الطفل بالاعتداء على الرضيع العاجز عن المقاومة،
وهو اعتداء يتناسب وقدرة الطفل الجسدية ومنطقه
الذي يفكر فيه، ومن ثمّ فلا يُتوقَّع أن يكون اعتداء
خطيراً، ولكنه قد يكون مؤذياً.

(٤) ولأنه كذلك فلا بد من منعه. ولكن
المعاقبة الصارمة تزيد الأمر سوءاً، ففي كل مرة
يُضْرَب الطفل فيها أو يُعاقَب بسبب أخيه الصغير
سيزداد شعوره تجاهه بالمرارة، فهو قد احتل موقعه
أولاً وزاحمه على مكتسباته، ثم ها هو ذا يتسبب في
عقابه وازدياد مشكلته سوءاً.

(٥) فماذا تصنع الأم إذن؟ أفضل الحلول هو
أن تحوّل بين الطفل وأخيه الرضيع وتبعد كلاّ منهما
عن الآخر ما وسعها ذلك، فإذا نام الرضيع (وكثيراً
ما ينام الرضيع) تقفل عليه باب غرفة النوم، وإذا
كان مستيقظاً تجتهد بأن لا تترك الاثنين بعيداً عنها
أبدًا، بل تبقى معهما تراقب وترعى فتمنع حدوث
أي اعتداء.

(٦) فإذا اعتدى الطفل على أخيه الرضيع (رغم هذه الاحتياطات) فعلى الأم أن تنهيه عن تكرار مثل ذلك السلوك بحزم ولكن دون عقوبة. ومن أخطر ما تصنعه الأمهات وشره أثراً أن تسمع بكاء الرضيع وهي بعيدة عنه لا تدري ما أصابه فتظن أن أخاه قد آذاه فتعاقبه وهو من التهمة براء. إن لمثل هذا التصرف أثراً مدمراً، فلتحذر الأم وتكن على يقين قبل أن تُقدم على أي عمل، ولا تعاقب (لو أصرّت على العقاب) إلا على ما تراه رأي العين.

(٧) ذلك كله علاج، والوقاية خير من العلاج.

إن الأم لا تملك إلا أن تمنح الصغير الجديد ما يحتاجه من الاهتمام، وهو يحتاج حقاً إلى الكثير منه، ولكن الحكمة تقتضي أن تراعي مشاعر الطفل الأكبر فلا تُشعره بأن أخاه الصغير قد استحوذ على اهتمام أمه كله، وإذا اجتمع الاثنان فليكن ما تمنحه من حب واهتمام (في الظاهر) للطفل الأكبر أكثر من الأصغر. نعم، إن شعوراً قوياً في داخلها يدفعها إلى حمل الرضيع وتقبيله وإغداق الاهتمام عليه، ولكن الأم الحكيمة تجتهد في تخفيف هذه المظاهر أمام طفلها القديم حتى لا تفاقم غيرته.

ثم تذكري أن الطفلين يحتاجان إلى العاطفة والعناق والتقبيل كما يحتاجان إلى العناية البدنية (الطعام والنظافة والرعاية)، إلا أن حاجة طفلك الأكبر إلى العاطفة -في هذه المرحلة تحديداً- أشد من حاجة الوليد الجديد إليها، كما أن حاجة الوليد إلى العناية البدنية أشد من حاجة الطفل الأكبر، فإذا أدركت هذا التباين بين الاثنين ستحسّنين توزيع العاطفة والعناية والاهتمام بينهما بما فيه الخير لهما جميعاً بإذن الله.

المهم أن تستمري في منح ابنك الأكبر العاطفة والحب والاهتمام بالقدر نفسه الذي كان يناله منك قبل وصول الوافد الجديد. إنها رسالة صغيرة تقولين له فيها: "أنت طفلي المدلل، كنت أحبك كثيراً، وسأبقى أحبك كثيراً، ولن يسرقني منك أي مخلوق آخر".



خوف الأطفال

اصطحبت أبنائي قبل أيام إلى «مركز العلوم» لحضور العرض الشيق والمفيد للدينصورات، ولكن أصغر الأولاد (وهو في الرابعة من العمر) فزع وبكى خوفاً لدى اقترابنا من أول دَيْنصور كبير، ولا سيما عندما حرك رأسه وأصدر أصواتاً عالية، وأصرّ على الخروج من المكان. فكرت بالمغادرة فوراً ولكن الأولاد الكبار ألحوا على البقاء، فجلست معه في الحديقة الخارجية للمركز ريثما أكمل الكبار جولتهم. ماذا كان ينبغي أن أفعل، وماذا أفعل في حالات مشابهة في المستقبل؟

الخوف ظاهرة طبيعية عند الصغار والكبار، وهي دليل على الصحة النفسية والسلامة العقلية ما لم تتعدَّ الحدود الطبيعية. بل إن الغياب الكامل للشعور بالخوف سبب للخطر، فالطفل إذا لم يخف من السيارات المارة في الطريق سيندفع أمامها فيصدم، وإذا لم يخف من النار سيمد إليها يده فتحرقه.

لذلك يوصي علماء النفس بالاعتراف بالخوف وعدم إنكاره (ومعالجة أسبابه إن كان خوفاً مرضياً،

كخوف بعض النساء البالغات من القطط مثلاً)، كما يؤكد علماء التربية ضرورة إفساح المجال للطفل للتعبير عن مشاعر الخوف في نفسه دون أدنى قدر من السخرية أو الاستهزاء اللذين يُخشى -لو قوبل الطفل بهما- أن يدفن خوفه في أعماق نفسه فيحمله معه بقية عمره.

العلاج الأفضل للحالة المذكورة هنا لم يكن إبقاء الطفل بعيداً، بل هو الاقتراب الحذر والمتدرّج من مصدر الخوف، لأن الانسحاب كرّس -ضمناً- اعتراف الأم بمبرّر الذعر والخوف لدى الصغير، وقد يرتبط إحساس الخوف لديه بهذا المكان الجميل المفيد فيأبى بعد ذلك زيارته أو الاقتراب منه.

التصرف الأفضل كان يمكن تنفيذه بالخطوات التالية:

(١) امنعي بقية أبنائك -بشكل جازم- من التعليقات السلبية أو الاستهزاء والسخرية، كأن يُقال للصغير أنه جبان (خَوَّاف) أو طفل صغير (بيبي) وأمثال هذه التعبيرات الجارحة.

(٢) احملي الطفل وضمّيه إليك بقوة ليشعر

بالأمان، وابتعدي قليلاً إلى الوراء ثم قفي ساكنة -وأنت ما زلتِ تحملينه- بحيث يكون الدينصور مرئياً بوضوح مع مَنح الطفل شعوراً بابتعاده عنه بمسافة أمان كافية.

(٣) حاولي طمأنة الطفل بعبارات مثل: "إنه لعبة كبيرة مصنوعة من البلاستيك"، "إنه لا يتحرك لأن أرجله مربوطة بالأرض، لذلك لا يمكنه الاقتراب منا"... ومن المهم أن تؤكد للطفل عدة مرات أنك لن تقتربي به من الدينصور بل ستقفين بعيداً لتأمله فقط، ومنهم أيضاً أن تكون لهجتك مسترخية وواثقة طول الوقت.

(٤) اطلبي من أحد الأولاد الكبار أن يمدّ يده ليلمس الدينصور وأكدّي للصغير: "أرأيت؟ إنه لعبة، لا يتحرك ولا يؤذي أحداً، والأولاد يحبون أن يلعبوا معه"^(١).

(٥) أكملّي الجولة في المركز وكرري نفس

(١) عادةً يُمنع لمس المعروضات في مثل هذه الأماكن، لكن المسؤولين سيتفهمون الأمر إذا أوضحتهم لهم أن الغرض من اللمس تربوي وليس من باب الفضول.

الخطوات السابقة كلما مررت بمجسم دينصور آخر معروض، وحاولي أن تقتربي أكثر في كل مرة بحيث يتألف الصغير تدريجاً مع فكرة عدم الخوف من هذه المُجَسَّمات.

(٦) ختاماً: اشترى له مجموعة من مجسمات الدينصورات الصغيرة لكي يلعب بها في البيت (منفرداً أو مع إخوته الكبار) فيزول أي خوف ربما بقي في نفسه، مع ضرورة تنبيه الأولاد الكبار إلى تجنب إثارة ذعر الصغير بتعمد تمثيل الأصوات المفزعة أثناء اللعب أو التلفظ بعبارات من نوع «الدينصور سيأكلك» وأمثالها.

أخيراً فإن هذا الأسلوب الذي عالجنا به مشكلة خوف الصغير من مجسم الدينصور المرعب ليس وقفاً على هذه الحالة دون سواها، بل هو طريقة عامة يمكن اللجوء إليها في حالات مشابهة للقضاء على خوف الطفل الفطري مما هو غير مألوف من الأشكال والأصوات المخيفة.

* * *

اختيار اللعبة المناسبة للطفل

لي ولد في الخامسة. كلما أحضرت له لعبة جديدة عمد إلى تحطيمها وتفكيك أجزائها بحيث لم تبقَ لديه أي لعبة جديدة. هددته بمعاقبته بالتوقف عن شراء اللُّعَب وعاقبته مرة أو مرتين بالضرب، ولكنه لم يغير هذا السلوك. هل أحرمه من اللُّعَب نهائياً؟

نحن نعرف أن الطفل يحتاج إلى الرعاية والحماية والغذاء والنوم، ونسمي هذه «حاجات أساسية» له، ولكننا ننسى -غالباً- أو نجهل أن الحاجة إلى اللُّعَب واحدة من حاجات الطفل الأساسية التي قد لا ينمو سويّاً سليماً إذا حُرِم منها، وهذه أضحت من الحقائق المسلّم بها لدى علماء النفس والتربية المعاصرين.

للهولة الأولى يبدو أن حرمان مثل هذا الطفل المشاكس من الألعاب هو الحل النموذجي، ولكن الحقيقة أن هذا الإجراء من شأنه أن يعقّد المسألة لا أن يحلّها، لأن لدى بعض الأطفال (وهذا -كما يبدو- منهم) طاقة زائدة عن الحد الطبيعي تحتاج إلى تنفيس وتفريغ، فإن لم يُسمَح للطفل بأن يفرّغها

باللعب المعقول صنع ذلك بأسلوب ضارّ قد يسبب
الأذى له أو لسواه من الأطفال أو تخريباً لبعض أثاث
البيت أو محتوياته. كما أن حرمان الطفل من حاجته
الأساسية إلى اللّعب سيشوّه نفسيته وقد يخلف لديه
آثاراً سلبية سيئة على المدى الطويل.

الحل هو انتقاء النوعية المناسبة من اللعب،
فُتُشترى لهذا الطفل بعض اللعب والسيارات الصلبة
التي لا تتكسر، على أن يكون أكثر ما يُشترى له من
اللّعب التي تنمي مهارات الصناعة والتركيب والفك
والتشكيل، وهي متوفرة بأنواع كثيرة مثل لُعب
«الليغو» التي يشكّل الطفل من قِطْعها أبنية وأشكالاً
متنوعة وسيارات وسفنًا وطائرات، ويستطيع أن
يفككها ويعيد تشكيلها بصور وهيئات جديدة كلما
ملّ التركيبات القديمة. كل ذلك مع المراقبة والتوجيه
الدائمين للأُم -مما يتيح لها التدخل بالشكل
المناسب في الوقت المناسب- وحرصها على تعليم
أبنائها الطريقة الصحيحة للّعب والتعامل مع كل نوع
من أنواع اللّعب التي يلعبون بها.

* * *

معالجة ملل الطفل من لعبه

لي ابن في التاسعة لديه عدد كبير من اللعب التي حرصنا، أبوه وأنا، على توفيرها له ووضعها بين يديه ليُشبع رغبته في اللعب (أليست الحاجة إلى اللعب واحدة من حاجات الطفل الأساسية كما قلت في بعض إجاباتك السابقة؟) ولكن المشكلة أنه يُبدي عدم اكتراث ويكرر تعبيره عن الإحساس بالملل من الألعاب التي يملكها ويطلب الجديد دائماً، فهل يعقل أن نرمي ما لديه من لعب ونحضر غيرها كلما شكّا الملل منها؟

بلى، أنا قلت سابقاً أن الطفل يحتاج إلى إشباع حاجته إلى اللعب كما يحتاج إلى إشباع حاجته إلى الغذاء والكساء، ولكنني قلت أيضاً أن الطفل لا يُجاب إلى كل ما يطلب، فالجواب -إذن- أن الحل ليس في رمي اللعب الموجودة وشراء غيرها. الحل يسير غير عسير، ولكن لفهم المشكلة أولاً، ولكي نفهمها تماماً إليك هذا التمرين:

اسألني زوجك ما أحب الأطعمة إليه (وإن كان يُفترض أن هذا القدر من العلم هو من المعلوم

بالضرورة في عالم الأزواج) ولنقل أنه يحب من الطعام -أكثرَ ما يحب- الملوخية والأرز بالدجاج والكبة المقلية. والآن اطبخي له هذه الأكلات يوم السبت، وأعيدي طبخها يوم الأحد، ثم يوم الإثنين، والذي يليه، والذي يليه، أسبوعاً بعد أسبوع... عندئذ سينفجر قائلاً بيأس: أرجوك، لا مزيد من هذه الأطعمة. اطبخي أي شيء آخر!

فما الذي حصل؟ أليس هو الذي اختار هذه القائمة من المأكولات منذ البداية؟ ثم أليست هي أحبَّ الأطعمة إليه؟

هذه هي سِمة النفس البشرية، تمل التكرار وتعزف عن المؤلف وتتشوق إلى غير المتاح. فإذا كنا نحس بذلك تمام الإحساس -نحن الكبار- أيكون من العدل أن ننكر الإحساس به على الصغار؟

ما دمنا قد فهمنا المشكلة الآن فإليك الحل:

(١) لا تضعي بين يدي الطفل كل اللُّعْب في كل الأوقات. في كل بيت أماكن مناسبة للتخزين، فتخيري من لعبه بعضاً لا يزيد على الربع وأخفي الباقي في تلك الأماكن التي لا يراها ولا يصل إليها،

واتركيه يلعب بما بين يديه من اللّعب شهراً كاملاً حتى يبدأ بالشعور بالملل منها.

(٢) عند ذلك أخرجني بعضاً مما كنت خبأت من لُعب وأخفي ما كان بين يديه، ثم اصنعي مثل ذلك بشكل دوري من بعد. إذا كنت قد أخفيت ثلاثة أرباعها ثم أخرجت ربعاً جديداً كل شهر فإن المدة الفاصلة بين إخفاء اللعبة وإعادتها تكفي لأن ينساها ويتشوق إلى اللّعب بها ويجد فيها قدراً من الجِدّة والإثارة حين تظهر له من جديد.

(٣) ربما يتسرب الملل إلى نفس الطفل من بعض لُعبه لأنه يلعبها بطريقة واحدة تتكرر ولا تتغير. ستساعدينه -في مثل هذه الحالة- لو دخلتِ إلى عالمه لبعض الوقت بين حين وحين وعلمته اللعب بلعبته بطرق جديدة وأساليب مبتكرة.

(٤) وأخيراً جرّبي أنت نفسك التجديد عن طريق الابتكار في وسائل اللّعب وأدواته. في كثير من الأحيان نجح الأهل في إضفاء الحيوية والتجديد على عوالم أطفالهم باستحداث لُعب لا تخطر بالبال من الموارد العادية المتاحة في البيت: علبة المناديل الفارغة يمكن أن تُفتَح من أحد طرفيها فتصبح بيتاً

للدُمى أو محطة لإصلاح السيارات الصغيرة. معلبات
الفول والبازلاء والتونا والسردين يمكن أن يوضع
بعضها فوق بعض فتصبح أبنية وناطحات سحب
في مدينة تجري فيها السيارات. دمية صغيرة تُحشَر
في قنينة ماء فارغة قُصَّ أعلاها يطيرها الطفل في
أرجاء البيت كأنها كبسولة فضاء... وهكذا، عشرات
وعشرات من الابتكارات المسلية يمكن الوصول
إليها باستثمار مواد البيت العادية وموارده المتاحة،
فابتكري بغير ثمن يفرح طفلك ويسلُ بغير حدود.



الدلال والتمرد

لا أزال أنا وزوجتي في خلاف بشأن تربية ابنتنا الصغيرة، فهي تصرّ على دلالها وإجابة كل مطلب لها، حتى صارت البنت تصرخ إذا لم تحصل على ما تريد وربما ضربت أمّها، والأم لا تجد في مثل هذا السلوك غضاضة. نعم، إن البنت ما تزال صغيرة في الثالثة من عمرها، هذا هو منطق زوجتي، ولكني أقول لها أن الطفل إذا لم يحترم والديه صغيراً فأنتي له أن يحترمهما كبيراً؟ وأرى أن سلوكاً كهذا لا يُقبل فأنتهر ابنتنا وأحاول إيقافها فتغضب أمّها وتنعني بالقسوة، فأينا على صواب؟

أنت على صواب. قد لا يُرضي هذا الجواب زوجتك، ولكنّ خيرٌ لها أن يزعجها مثل هذا الرأي اليوم من أن تعقّها ابنتها ذات يوم فتندم حين لا ينفع الندم. وهي قد تحتجّ بأن كثيراً من الأطفال دُلّوا وقُبِلت منهم تصرفات كهذه في صغرهم ثم هُذّبوا واستقامت أخلاقهم لمّا كبروا. وهذا صحيح، ولكنّ صحيح أيضاً أن بعض هؤلاء الصغار لم يتهدّبوا قط وكبروا فصاروا عاقين متمردين وكانوا وبالاً على

والديهم، فهل ستقبل أي أم عاقلة أن تترك مثل هذه المخاطرة؟ إنها ليست مخاطرة بمال أو بما يعوّض بمال، بل بالولد الذي هو أغلى ما يملك والد أو والدة. ولقد عرفت حالات ارتكب فيها أبناء عاقون جريمة ضرب آبائهم وأمهاتهم العجزة، وكان مبدأ ذلك التجاوز أنهم ضحكوا لهم وبشّوا في وجوههم لمّا صنعوا ذلك أول مرة وهم صغار.

ولربما زعمت هذه الأم (وغيرها ممن يستسيغ مثل عملها) أنها قادرة على ضبط الأمر في الوقت المناسب وأن ابنتها ستتعلم -إذا كبرت- أن هذا التصرف غير لائق فتكف عنه، فإذا خالفت آنذاك فإنها ستعاقبها فتفهم وتتأدب. وأنا أقول: لماذا هذا العناء للأم وال بنت كليهما؟ وإن كان أمرٌ سينفَّذ في غدٍ فلماذا لا ينفَّذ اليوم؟ أرايتم إلى طبيب يشخص ورماً لدى مريض (عافاكم الله من كل داء وبلاء) فيقول له: اذهب اليوم وعد إليّ بعد عام أستأصل لك هذا الورم، يصنع ذلك طبيب عاقل؟ فكيف تقبل أن تصنع مثل هذا أمّهاتٌ عاقلات؟!

* * *

العناية بتوأم^(١)

رُزقت منذ وقت قريب بتوأم، ما هي نصيحتكم
لتربيتهما والعناية بهما، فأنا في حيرة بينهما
لأنهما يبيكان معاً ويحتاجان إلى العناية في
وقت واحد، وأخشى أن أصرف جهدي إلى
أحدهما فيغار منه الآخر.

أطمئنك أولاً إلى أن التوأم لا يغار من توأمه،
هذه هي الحالة الشائعة في معظم التوائم (وقد تكون
لها استثناءات، ولكنها نادرة) وهذا يسهّل الأمور
كثيراً، ولو كانا طفلين متعاقبين بينهما سنة أو سستان
لكانت هذه المشكلة معقدة وتحتاج إلى كثير من
الصبر لحلّها.

النصيحة العامة التي أستطيع تقديمها هي
أن تجعللي من عادتك في التعامل مع الطفلين أن
تبدئي بأحدهما في كل مرة على التعاقب. فإذا بدأت

(١) فائدة لغوية: يقال للطفلين يولدان معاً أنهما «توأم»
وأنهما «توأمان»، كلا اللفظين صحيح، والواحد توأم
والواحدة توأم أو توأمة. فإن زاد إلى ثلاثة وأربعة
صاروا ثلاثة توائم وأربعة توائم.

بإطعام الأول في وجبة النهار فليكن الثاني هو من تبدئين به في وجبة الليل، وإذا غسّلت هذا قبل ذاك في اليوم الأول فغَيّري الترتيب في حفلة التّغسيل في اليوم التالي... واعدلي بينهما في كل شيء: في الحب والحنان والعناية والاهتمام، وفي جميع أشكال العطاء المادي والمعنوي، فإن هذا السلوك من طرفك سيحافظ على العلاقة الطيبة بهما وبينهما.

أما لتسهيل مهمتك فتعلمي أسلوب العمل والإنتاج بالجملة، على الطريقة التي تعمل بها المصانع والمطابخ العامة. مثلاً: اخلطي بالخلّاط أكلاً يكفي للاثنتين في دورة خلّاط واحدة ثم أفرغي المحتوى في طبقين، ولا تخلطي لكل واحد طعامه على حدة. جهّزي الفراشين معاً ثم انقلي إليهما الطفلين -إن استطعت- في رحلة واحدة وليس كلاً على حدة، غسّليهما معاً فتوفرين الوقت وتتوثق الرابطة والألفة بينهما، ومثل ذلك يقال في معظم أعمال الرعاية والأنشطة المختلفة. أعانك الله وأسعدهما وأسعدك بهما وجعلهما من الصالحين.

* * *

خطورة تفضيل بعض الأبناء

أختي لها عدد من الأولاد، من الذكور والإناث، إلا أنها مفتونة بصُغرى البنات لرقّتها وحسنها وما طُبعت عليه من المرح، فهي تفضّلها في المعاملة تفضيلاً يحسّ به الصغير والكبير والقريب والبعيد، وتؤثّرهما بالمحبة والرعاية والاهتمام. وما أكثرَ ما نصحتها بأن تغيّر سلوكها هذا فلا تستجيب، وتقول: "أليس يفضّل من الولد على غيره «الصغيرُ حتى يكبر»؟ فأنا طبيعية إذن!" فماذا أصنع معها؟

كم أستغرب من هؤلاء الآباء الذين يحبّون الواحدَ من أبنائهم فيسبّبون له الشقاء!

لو عقلت هذه الأم لعلمت أن من أسباب سعادة الطفل أن يعيش وسط قوم يحبهم ويحبونه، ويطمئن إليهم ويطمئنون إليه، ويتواصل معهم ويتواصلون معه، وهي -بتفضيلها المفضوح هذا- إنما ترفع بين طفلتها الصغيرة وسائر إخوتها وأخواتها جداراً لا تكاد تهدمه الأيام، وتجعلها إلى قلوبهم من أبغض الناس ومن أبعد الناس، فكيف يحبونها وكيف يتواصلون معها من بعد؟

ثم فلتقل لي: في أي سورة وردت هذه الآية:
«الصغير حتى يكبر»، أو في أي حديث؟ أما أنا
فأحفظ الحديث الآخر الذي يقول فيه النبي ﷺ: «يا
بشير، ألك ولد سوى هذا؟ قال: نعم، فقال: أكلهم
وهبت له مثل هذا؟ قال: لا. قال: فلا تُشهدني إذن،
فإني لا أشهد على جور»، وفي رواية قال: «اتقوا الله
واعدلوا بين أولادكم»^(١).

هذا هو حكم الإسلام ومنهج النبوة: العدل
والمساواة في العطاء المادي والمعنوي (والحُبُّ
والاهتمام من العطاء المعنوي). أما الذي لا يحاسب
عليه الله فهو الحب الذي يستودعه صاحبه القلب ولا
تعبر عنه الجوارح.

(١) عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّهُ قَالَ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً فَقَالَتْ
عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.
فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتُ
رَوَاحَةَ عَطِيَّةً فَأَمَرْتَنِي أَنْ أُشْهَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ:
أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ. فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ». وَهُوَ حَدِيثٌ
مَشْهُورٌ أَخْرَجَهُ مِنْ طَرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَبِأَلْفَاظٍ مُتَقَارِبَةٍ
الشَّيْخَانِ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَأَصْحَابُ السَّنَنِ وَمَالِكٌ فِي
الْمَوْطَأِ وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ.

أتريدون أن يكون الأولاد كلهم أعداء كارهين
لأختهم الصغيرة؟ فاقري إذن سورة يوسف، فإني
ما قرأتها إلا وتساءلت: ما الذي استفاده يوسف عليه
السلام من محبة أبيه المفرطة؟ أما كان خيراً له لو أن
أباه جعله في المحبة والاهتمام هو وإخوته سواء؟
أما كان ذلك أهونَ عليه من الجُبِّ والعبودية والفتنة
والسجن كل هذه السنين؟

نحن لا نسأل في هذا المقام مثل هذا السؤال
لأن ذلك كان فعلَ نبي معصوم ليمضي قدراً أرادته
الله، لكن أنت ما بالك يا أيتها الأم؟ وهل تحبين
لابنتك مصيراً كهذا المصير؟

لا أقول أن إخوة ابنتك سيرمونها في بئر ولا
أظن ذلك، لكنني أظن، بل أكاد أكون على يقين،
أنهم سينفرون منها ويزدادون نفوراً كلما ازدادت لها
دلالاً وتفضيلاً. فليسع قلبك الجميع من أولادك،
فأنت أم الجميع، واقسمي بينهم اهتمامك ورعايتك
ومحبتك بالسوية يكونوا أسوياء وينشؤوا بك بارين
ولأختهم محبين.



سلطة الأجداد

أنت قلت ذات مرة أن الآباء هم وحدهم الذين يحق لهم وضع القوانين وتربية الأبناء، ولكن ماذا عن الأجداد؟ المرء يستطيع أن يقاوم تدخل أعمام الأولاد والعمات وأخوالهم والخالات، وغير هؤلاء من الناس، لكنه لا يستطيع حتماً أن يقاوم تدخل الأجداد لأن لهم سلطة على الوالدين نفسيهما، فماذا يصنع؟

صحيح، أنا قلت أن الآباء هم وحدهم المخوّلون بالتقنين (وضع القوانين) وبالعقاب، ومعنى هذا أن أحداً سواهم لا يقنن للأبناء ولا يعاقبهم. لكن تبقى حقيقة أن الأجداد هم آباء الآباء، أي أنهم يستطيعون أن يوجّهوا الأبناء بتوجيه آباء الأبناء. في النهاية هم أصحاب كلمة عليا، لكن الأسلوب مهم، فكل دارس لعلوم الإدارة يعرف أن العلاقات الهرمية في النظام العام تأخذ شكل الثمانيات لا السبعات. ماذا يعني هذا؟

إذا نظرنا إلى الثمانية سنجد أن لها رأساً واحداً من الأعلى وضلعتين من الأسفل، أي أن الرئيس الواحد يمكن أن يكون مسؤولاً عن اثنين

(أو أكثر) من المرؤوسين. لكن العكس لا يجوز، فالمرؤوس لا يصح أن يكون له رئيسان (كالسبعة لها رأسان في الأعلى ونهاية واحدة في الأسفل). فإذا كان للمرؤوس أكثر من رئيس فسوف تتناقض الأوامر وتتعارض التوجيهات. وبمثل هذه الحجة سعى القرآن إلى إقناع الذين يُشركون آلهةً بالله الواحد الأحد، فقال لهم أن تعدد الآلهة يؤدي إلى الخلاف وإلى فساد الكون^(١). وبصورة مصغرة (ولله المثل الأعلى) فإن تعدد المديرين للأفراد في الشركة يخرّب أداؤها ويؤدي إلى الإفلاس، وتعدد القادة للجنود في الحرب تنتج عنه الفوضى العسكرية وقد يتسبب في خسارة المعركة... وكذلك الأولاد في العائلة.

ولعل قائلاً يقول: فكيف يقود الأب والأم البيت والأولاد وهما اثنان؟ والجواب أن الأبوين يعيشان واقعَ أبنائهما معاً بحيث يصنعان ما يسمّونه بالتعبير الحديث «رؤية مشتركة»، فلا يعود قرارهما قرارَ اثنين بل هو في الواقع قرار واحد في شخصين، وربما

(١) في قوله تبارك وتعالى في سورة الأنبياء: ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا﴾.

فَوْضَ أَحَدُ الْأَبْوِينَ الْآخَرَ فِي هَذِهِ الْأَخْتِصَاصَاتِ أَوْ
تِلْكَ مِنْ أُمُورِ الْبَيْتِ وَالْعَائِلَةِ، وَبِهَذَا يَسْتَقِيمُ الْحَالُ.
أَمَّا الْبُيُوتُ الَّتِي يَنْتَفِي فِيهَا مِثْلُ هَذَا الْإِتِّفَاقِ فَيَعِيشُ
كُلُّ أَفْرَادِهَا فِي عَذَابٍ.

تَبْقَى -أَخِيرًا- مِلَاحَظَةُ مُهِمَّةٍ عَنْ دَوْرِ الْأَجْدَادِ.
إِنَّهُمْ أَصْحَابُ الْكَلِمَةِ الْآخِرَةِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ
باعتبارهم آباءُ الآبَاءِ، هَذَا لَا رَيْبَ فِيهِ، لَكِنْ دَوْرُهُمْ
الْأَكْبَرُ وَقِيَمَتُهُمُ الْعَظْمَى هِيَ فِي كَوْنِهِمْ مُسْتَوْدَعًا رَائِعًا
لِاثْنَيْنِ مِنْ أَهَمِّ الْأَشْيَاءِ فِي الْحَيَاةِ: «الْحُبُّ وَالْعَاطِفَةُ»
و«الْخَبْرَةُ وَالتَّجَرُّبَةُ».

وَأَحْسَبُ أَنَّ الْمَوْقِعَ الْمَتَمِيزَ الَّذِي يَتَمَتَّعُونَ بِهِ
بِحُكْمِ امْتِلَاكِهِمْ هَذَا كُلَّهُ لَا تَقَارِبَهُ وَلَا تَعْدُلُهُ كُلُّ
هَالَاتِ السُّلْطَانِ وَمُظَاهِرِ السَّيْطَرَةِ، وَهَذَا مَا يَجْعَلُنِي
عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ أَيَّ جَدٍّ أَوْ جَدَّةٍ فِي الدُّنْيَا لَنْ يَفْكَرَا
فِي حُدُودِ سُلْطَتِهِمَا عَلَى صِغَارِ الْأَطْفَالِ وَلَنْ يَعْزَبَا
بِذَلِكَ وَهُمَا يَعْيشَانِ فِي هَذَا النِّعَمِ وَيَلْقَيَانِ مِثْلَ هَذَا
التَّكْرِيمِ.

* * *

مراعاة قوانين الآخرين

لي قريب يزعم أنه يربي أطفاله على المبادئ الحديثة، وهو يمنحهم حرية كبيرة في بيته ويسمح لهم بما اعتبره أنا «تجاوزات غير مقبولة»، فإذا ذهب يزور الناس طبق قاعدته التربوية هذه في بيوتهم فخرّب أولاده وعاثوا فساداً، ثم يقول إن هذا هو الأسلوب التربوي الصحيح. أهو كذلك؟

حينما نقول أن الآباء يضعون القوانين لأبنائهم فإنما نقصد (كما ينبغي أن يكون مفهوماً) قوانين البيت الذي يعيشون فيه مع أبنائهم وقوانين السلوك العامة، فإذا ما دخل الأولاد أي بيت غير بيت أهلهم فعليهم أن ينضبطوا بنظامه.

على سبيل المثال: قد يسمح الأبوان لأبنائهما بالعبث بما في البيت من معروضات فنية (رغم أن هذا السلوك -برأيي- لا يجوز)، فإذا ما اصطحباهم إلى متجر يبيع التحف فوجدوا على المعروضات لوحات تقول «اللمس ممنوع» فهل يقول الآباء لأبنائهم: قوانيننا وأنظمتنا تبيح اللمس والعبث، فالمسوا ما شئتم يا أولاد والعبوا بما تحبون؟

عندئذ سيُطرَد الأبناء وآباؤهم معاً من الدكان!

القاعدة هي: «مَنْ دَخَلَ ظَفَارَ حَمَرٍ»^(١)، أي أن على زائر أيِّ مكان أن يفهم أعراف المكان وأنظّمته وقوانينه، ثم يلتزم بها وينضبط بضوابطها. وإن كانت هذه الأنظمة والقوانين لا تعجبه أو أنها تخدش -برأيه- نفسيات أولاده الحساسة فليلزم بيته، فعندئذ يُريح ويستريح.

* * *

(١) ظَفَار -كما قال ياقوت- كانت قرب صنعاء أو أنها هي صنعاء ذاتها. وهذا مثَلٌ يضربونه للرجل الغريب عن القوم إذا خالطهم فليتكلم بكلامهم ويتخلق بعاداتهم. وأصله أن أعرابياً وفد على بعض ملوك حِمَيْر في اليمن فوجده في مُتَصَيِّدٍ له على جبل مُشْرِفٍ، فسلم عليه وانتسب له، فقال له الملك «ثَبَّ» (أي اجلس بلغة حِمَيْر). وظن الرجل أنه أمره بالوثوب من الجبل فقال: "لتجدني أيُّها الملك مطوّعاً"، ثم وثب من الجبل فهلك. فقال: الملك: ما شأنه؟ فخبّروه قصته وأن معنى الوثوب بلغته هو القفز، فقال الملك: "مَنْ دَخَلَ ظَفَارَ حَمَرٍ"، أي من دخل ظَفَارَ فليتعلم الحميرية ويتكلم بها. وظفار لفظ مَبْنِيٌّ على الكسر مثل قَطَامٍ وَحَذَارٍ، وقد أعربه قوم.

تسلط الأخ على أخواته البنات

ابني في الرابعة عشرة، وهو يتسلط على أخواته البنات ولا سيما في مسألة الحجاب، فأخته عمرها سبع سنوات وهو يرفض أن تخرج معه إلا وهي محجبة الرأس.

هذه قضية ذات وجوه، والجواب عنها يحتاج إلى شيء من التفصيل:

(١) إذا كان طلبه هذا من باب التدين وإرضاء لله فيشكر عليه ويحمد له، وهذه من النعم: أن يكون الأبناء الأكبر سناً متدينين فيساعدوا على استقامة الإخوة الأصغر سناً بإذن الله. أما إذا كان تركيزه على الحجاب من باب الانسجام مع الجو العام ومسايرة للبيئة ولم يكن من باب الحرص الشرعي والغيرة الدينية فهذا عيب يحتاج إلى إصلاح عميق.

(٢) على أن المشكلة ذاتها لا علاقة لها بدافع الأخ. المشكلة أن الأبوين يعانيان من تطفل الآخرين وتدخلهم في تربية الأبناء، فلا يقدران على الانفراد بتربية أبنائهما التربوية التي يحبان ويعجزان عن سلوك النهج التربوي الذي يرجوان. هذا التطفل أو التدخل

كثيراً ما يأتي من طرف الأجداد والجَدَّات، وعندئذ يصبح منعه صعباً إلى حد ما لأن للأجداد سلطة شرعية وتربوية على أبنائهم الآباء، فماذا يصنع الآباء؟ يسعون إلى التخلص الرفيق من تدخلات الأجداد التي يحسون أنها تتعارض مع توجهاتهم التربوية، ويغضون الطرف عن التدخلات التي تنسجم مع تربيتهم (ولو من بعيد).

فإذا جاء التدخل من طرف آخر فماذا يصنع الوالدان؟ ببساطة: لا يحق لأي كان أن يربي الأولاد إلا آباء الأولاد، إلا أن يقتصر الأمر على رأي أو نصيحة.

(٣) ليس الإخوة استثناء من هذه القاعدة، بل هم أولى الناس بتطبيقها عليهم. لو أراد أي واحد من الناس التدخل في تربية الأبناء لتدخل في الأسبوع أو في الشهر مرة، أما الأخ الذي يعيش مع أخت أو مع إخوة صغار فإنه ربما تدخل في اليوم الواحد مرات ومرات، وعندئذ يختلط الحابل بالنابل ويتعدد القادة والرؤساء. نعم، الأبوان ليسا شخصاً واحداً في الحقيقة ولكنهما بمثابة الشخص الاعتباري الواحد، فهما يتفقان في أصول التربية وفي فروعها في الأعم

الأغلب، وهذا من أساسيات التربية الناجحة، فلا يتشتت الأبناء بينهما ولا يستصعبون التلقي من كليهما معاً. أما الأخ فأمره مختلف، فهو سيجمل قناعات مختلفة أو يسعى إلى تطبيق نهج تربوي مغاير لذلك الذي يطبقه الوالدان، وهذا هو ما يظهر في السؤال المطروح هنا، وهو الحالة العامة كلما تدخل الإخوة في التربية.

(٤) على أن الوالدين يخالفان الحكمة إذا ما أرغما ابنهما هذا على اصطحاب البنت بغير حجاب، فما دام هو كارهاً لذلك فالأولى أن يُعفى من اصطحابها. أي أننا لا نجبره على مرافقتها لكننا لا نلبي له طلبه ونحن غير مقتنعين به، فربما كانت خطة الأبوين أن يحجبا البنت بالتدريج حتى تألف الحجاب وتحبه، ولا بد أن لهما توقيتاً مناسباً للبدء بتنفيذ هذه الخطة.

(٥) وإذا كان من الأصول المهمة في التربية أن لا يشارك الإخوة آباءهم في تربية إخوتهم وأخواتهم الصغار، فإن النصيحة مقبولة طالما قيلت بالأسلوب المؤدب ودون مساس بمركز الوالدين، فقد تكون للابن الكبير وجهة نظر تستحق الدراسة أو رأي

جدير بالتفكير، فإذا ما استُمع إليه ونوقشت فكرته
فربما جاءت بخير.

(٦) ما سبق هو علاج إقحام الابن الأكبر نفسه
في تربية إخوته الصغار، ذكوراً كانوا أو إناثاً، وهو
تدخل يعتمد على فارق السن. أما التدخل الذي
يعتمد على فارق الجنس والذي يسمح - في بعض
المجتمعات والبيئات - بتسلط الأبناء مهما صغروا
على البنات مهما كبرن فإنه من أخطاء التربية التي لا
ينبغي لوالدين عاقلين السماح بها في أي حال.

طالما كان الوالدان في قيد الحياة^(١) فإن
الإسلام لم يفرق بين الأبناء ذكوراً وإناثاً، إنما
يأتي الفرق في توزيع الميراث بعد موت الوالدين
أو أحدهما، أو في ولاية الأخ على أخواته البنات
عندما يموت الأب.

(٧) أخيراً هذا رأيي في توقيت الحجاب: لعل
الحكمة هي تأخير «الحجاب الحقيقي» إلى نحو سن

(١) هذا هو التعبير الصحيح وليس «على قيد الحياة»،
فالمرء لا يكون «على» القيد بل «فيه». وهو كله تعبير
مُحدّث لم يعرفه القدماء على أي حال.

البلوغ حتى تُقبل البنت عليه راغبة فيه حريصة عليه. على أن يسبقه تدرج وتمهيد، فتحرص الأم على الاحتشام في ملابس ابنتها منذ السادسة أو السابعة، فلا تشتري للصغيرة الألبسة التي تكشف من الجسم أكثر ممّا تستر. فإذا بلغت البنت الثامنة أو التاسعة فليحرص أبواها على أن لا تكشف أمام الرجال من غير محارمها أكثر من الرأس واليدين إلى المرفقين والساقين إلى الركبتين، فإذا قاربت البلوغ فلتحتجب بحجاب «جزئي» يستر الجسم بشكل تقريبي، حتى لو كان يميل إلى الضيق بحيث يجسّم شكلها (وهو ممنوع في حجاب البالغات كما هو معلوم). فإذا بلغت وصارت مكلفة فسوف تكون مهية تماماً -نفسياً وعملياً- للحجاب الشرعي الكامل.

وفي حجاب الصغيرات آراء متباينة للفقهاء، وهذا الذي اخترته هنا موافق للفتوى على المذهبين الحنفي والحنبلي، وهما في موقف وسط بين تشدد الشافعية وتساهل المالكية، وأحسب أنهما -والله أعلم- أقرب إلى الصواب لموافقتهما للحديث المشهور في الصلاة.



ماذا نصنع مع الفضائيات؟

أنا وزوجي نتفق على معظم القضايا التربوية بحمد الله، لكننا نختلف اختلافاً شديداً على واحدة منها، وهي مسألة إبقاء التلفاز والفضائيات في البيت أو الاستغناء عنها؟ فهذه الأداة تُفسدنا وتُفسد أولادنا -فيما أرى- ويجب أن نستغني عنها. زوجي رآه أن الناس لا يمكن أن يعيشوا اليوم بلا فضائيات وؤأن الفائدة التي يمكن الحصول عليها من برامج الفضائيات كبيرة وكثيرة بحيث يُؤسى على فقدانها، وأنا أقول أن المرء يمكن أن يصنع ذلك ولا يخسر شيئاً، فأأي الرأيين أصوب؟

الذي تقولينه أيتها الأم الفاضلة حق، المرء يمكن أن يعيش بلا فضائيات وبلا تلفاز أصلاً ثم لا يضيع عليه الكثير مما يؤسّف لفقده، بل هو سوف ينجو من كثير من الشر وكثير من الفساد، فكل ذي لب من الناس يدرك أن أكثر ما تعرضه هذه الفضائيات ليس إلا حرباً على الدين والفضيلة ودعوة إلى الفسق والفجور.

الغيب لا يعلمه إلا الله، ولكن أي عاقل

يرى قطاراً منطلقاً بين مدينتين يعلم أنه قادم إلى المدينة الأخرى بلا ريب، فهو لن يقف في وسط الطريق. الاتجاه يدل على الغاية والبدايات تقود إلى النهايات، وما علينا إلا إخراج الحاسبات من جيوبنا لنحسب السرعة التي ينطلق بها «موكب الشيطان» هذا فنقدّر أين سيكون بعد عشر سنين.

إن المدّ أعظم من أن يُردَّ والسدّ فاق القدرة على الصّدّ، وإنا ما نكاد نصحو من صدمة عدوان فطيع على الدين والفضيلة حتى يصدمنا عدوان أفضع... حتى بات المرء يظن أن هؤلاء الناس لو صنعوا فلماً عن الهبوط على سطح المريخ لجعلوه عدواناً على الأخلاق والفضائل والمثل السامية جميعاً. نعم، ليس هذا بالأمر الجديد أبداً، ولكنه يزداد سوءاً يوماً بعد يوم.

هذا كله أعلمه ويعلمه المتدينون وغير المتدينين ويدركه العقلاء كما يدركه المجانين، ومع ذلك فإن لديّ سبباً يمنعني من القفز إلى الحل الأسهل بالدعوة إلى مقاطعة الفضائيات وقلع الأطباق والحياة بعيداً عن هذا العالم بخيره وشره، فما هو؟ إنه سبب منشؤه النظرية التربوية التي أعتنقها على مستوى الفرد

والجماعة ، وهذا بيانها :

الله تبارك وتعالى خلق الدنيا فخلق فيها خيراً
وخلق فيها شراً ، ولو أراد لجعلها خيراً محضاً لا شر
فيه ، ولو كان الأمر كذلك لم تكن دارَ اختبار يعقُبه
ثواب أو عقاب . ونحن أبناء هذه الدنيا ، فمطلوبُ منا
أن نعيش فيها مع خيرها وشرها بـ«حاسة دقيقة» تميز
الخير من الشر و«إرادة قوية» تدفعنا إلى هذا وتصدنا
عن ذاك . وبمثل هذه الطريقة تكتسب أجسامنا القدرة
على البقاء .

تصوروا لو أن زوجين رُزقا مولوداً وخافا عليه
من العدوى والأمراض فحبساه في بيت معقّم لا
تدخله الجراثيم وحالا بينه وبين الناس الذين تحمل
أجسامهم من أنواع الجراثيم المئات والآلاف ، ثم
إن جرثومة تافهة من الجراثيم التي لا نلقي لها بالاً
(جرثومة الرشح مثلاً) اخترقت هذه الأستار ذات يوم
فوصلت إلى هذا الطفل المسكين ، بل ربما يكون
عندئذ فتى يافعاً أو رجلاً كبيراً ، فماذا ترونه يحصل ؟
سيموت في يوم أو بعض يوم لأن جسمه لم يألف
هذه الجراثيم الهيّنة السخيفة التي نعيش كلنا معها ولا
تصنع بنا شيئاً .

وهل يستطيع مثل هذين الأبوين حماية ابنهما إلى الأبد من أن تصله أيُّ من جراثيم الأمراض في هذه الدنيا؟ لن يستطيعا، وكذلك جراثيم أمراض الأخلاق: لن يستطيع أي أبوين، مهما كانا حريصين، أن يبقيا أولادهما بمنأى عنها.

من أجل ذلك لم اختر الحل الأسهل، وهو إزالة الأطباق والعيش بعيداً عن الفضائيات، فنحن لن نستطيع أن نقاطعها وإلا قاطعنا الدنيا، وهي تقتحم علينا بيوتنا من أوسع أبوابها وشبابيكها، وسوف يحتك أولادنا بهذا العالم ذات يوم، قَرَبَ هذا اليوم أو بَعْدَ، شئنا لهم هذا الاحتكاك أم أبيناه، وعندئذ سينجو الذين عرفوا هذا الشر وعرفوا كيف يتقونهُ، وسيسقط - لا قدر الله - الباقون^(١).

إذن أنا اخترت الحل الأصعب، وهو العيش مع هذه الآفة، مع اجتناب شرّها ما وسعنا اجتناب الشر، واقتناص خيرها ما وسعنا اقتناص الخير.

(١) كانت هذه هي الفتنة الكبرى يوم نشرت جواب هذا السؤال قبل أكثر من عشرين عاماً، ثم صارت عالم الإنترنت بكل ما فيه من خير وشر وفوائد وموبقات.

وهذه بعض التوصيات التي أرجو أن تكون مفيدة في هذا المقام:

(١) في هذا العالم (عالم الفضائيات) خير كثير ونفع لا حدود له لمن أراد الفائدة وجعل هذه الأداة أداة خير لا أداة شر، فيه برامج دينية وعلمية وتاريخية وسياسية واجتماعية ووثائقية، إلى غير ذلك مما ينفع الناس في دينهم وفي دنياهم، فليكن ذلك هو ما يستغرق جُلَّ وقتك وأنت قاعد أمام التلفاز.

(٢) لكن فيه غير ذلك مما يسلي ولا يفيد، وهو أكثر من الأول عدداً وأشدَّ جذباً، فلنعاهد أنفسنا على مقاومة رغبتنا بمشاهدة أمثال هذه البرامج ما وسعتنا المقاومة، وكلما استسلمنا فجلسنا أمام التلفاز وأطلنا الجلوس سنعاهد أنفسنا من جديد. إن المؤمن يفرح بكل شبر يقربه من الجنة وبكل شبر يبعده عن النار، فإذا جلست أمام التلفاز تشاهد ما يُعرض فيه فانظر إلى أي الغائتين يقربك ما تراه.

(٣) وفيه غير ذلك، ليس مما يفيد ولا مما يسلي ولا يفيد، بل من الفساد المطلق، من أغاني الميوعة والتكشف والبرامج التي تدعو إلى التهلك والفجور، وغير ذلك مما أعلمه ومما لا أعلمه،

فهذه لا رخصة فيها ولا محلّ لاجتهاد: احذف قنواتها من مستقبلك (رسيفرك) إن كانت لها قنوات مخصصة، أو اقل جهازك وأعرض عنها إن بثّتها قنوات عامة، واستعن بالله.

(٤) مشاهدة الأفلام متعة لا يماري فيها أحد، أعني الجيد منها لا الرديء، لكنها لا يكاد يخلو فلمٌ منها من فحش وإثارة للغرائز، إن لم يكن بالصورة فبالحديث والإشارة والتعليق. وأقل القليل مما نراه من فحش في هذه الأفلام حرامٌ رؤيته بكل المذاهب الفقهية، المتساهل منها والمتشدد، فلا يمكن أن ننهي مشاهدتها بما بدأناه من رصيد في ميزان حسناتنا وأعمالنا الصالحة. فما هو حجم الخسارة في هذا الرصيد الذي سنقبل به يا ترى؟ لذلك أنصح: قلّلوا من مشاهدة الأفلام، ولو أنكم تطاوعونني لقلت: قاطعوها جميعاً.

(٥) لكن لا تنتبهوا إلى الفساد المكشوف وتغفلوا عن الفساد المبطن. إن فلماً إباحياً من الدرجة الأولى أهون وأخف بليّةً من برنامج حواريّ يناقش فيه المشاركون قضايا محرّمة فيزيئونها للناس ويهوّنون لهم اقترافها، أو يتبادلون الرأي في أمر من

أمور الشريعة فيُدلي كل واحد برأيه، وكأن للناس رأياً فيما قرره الخالق من حرمة أو حِلٍّ (كفرضية الحجاب أو تحكيم الشريعة في حياة الناس) فيجتري العامة على نقد مسلّمات الدين وإعمال عقولهم القاصرة في حكم الله المتصف بالكمال. لا أعني أننا نستطيع أن نشاهد الأفلام الإباحية ونُعرض عن أمثال هذه البرامج، بل أعني أن ندعها جميعاً.

(٦) أخيراً أحب أن أختتم بنصيحة تربوية

مهمة للوالدين والمربين: إن كثيرين يجعلون ما تعرضه الفضائيات مادةً حديثهم مع الناس، في لقاءاتهم الأسرية والاجتماعية المختلفة، فيستقر في أذهان الصغار والمراهقين الذين يسمعون أن ذلك هو الوضع السليم. فلا تجعلوا التلفاز مادةً لأمثال هذه الأحاديث، إلا ما كان نافعاً مفيداً منه. أما تبادل التعليقات والآراء عن الأفلام والتمثيلات والأغاني والبرامج السخيفة الهابطة التي صارت تملأ الفضائيات فلا، إن لم يكن حرصاً على الخلق الكريم والدين القويم فحرصاً -على الأقل- على الذوق السليم واللسان المستقيم.



نوم الطفل في غرفة والدَيه

منذ أن وُلدت طفلتنا الصغيرة وهي تنام معنا -أنا وزوجي- في غرفة نومنا، وسوف تبلغ الثالثة عما قريب. زوجي يصرّ على أن تُنقل إلى غرفة أخرى وأنا أعارض وأحتجّ بأنها ستشعر بالوحشة والخوف إن أبعدناها عنا، وربما احتاجت إلى مساعدتي وأنا بعيدة عنها، فأئينا على صواب؟

أرجو أن تتخيلي معي هذه الصورة: بعد سنتين ستكون طفلتك في الخامسة وهي تنام معكما في غرفة نومكما، وبعد ذلك بخمس سنوات ستصبح في العاشرة، وستنام معكما أيضاً، وبعدها بخمس سنوات أخرى ستبلغ الخامسة عشرة، وما زالت تنام في غرفتكما كذلك... أترين هذا معقولاً؟

ستقولين: لا، هذا غير معقول. حسناً، ليس معقولاً أن تنام فتاة في الخامسة عشرة في غرفة أبويها، فهل كان لائقاً أن تفعل ذلك وهي في العاشرة؟ تقولين: أيضاً لا. والآن هذا هو السؤال المهم: متى كانت مشاركتها والديها في غرفتهما غير لائقة ومتى كانت لائقة؟

قد تترددين ، لكننا سنتفق في النهاية على عمر أدنى يصبح استمرار الفتاة في النوم مع والديها فيه غير مناسب ولا جائز ، وأغلب الظن أنك ستوافقين على عمر صغير نسبياً ، ربما السنة الثالثة أو الرابعة في أقصى الحدود.

إذا اتفقنا على هذا المبدأ فلن أواجه صعوبة في إقناعك بالباقي : لو كنت تحبين ابنتك حباً حقيقياً فأخرجيها من غرفة نومك اليوم قبل الغد. لماذا؟ لكي توقري عليها الجهد والمعاناة.

لو أن ابنتك هذه جاءتك ذات يوم وقالت : "ساعديني يا أمي ، إنني أشعر بألم في أسناني". فنظرت في فمها فلمحت بداية تسوس في واحدة من أسنانها^(١) ، فهل ستحملينها إلى طبيب الأسنان من فورك أم أنك ستقولين : نعم ، يوجد تسوس ولا بد من علاجه ، ولكن العلاج قد يسبب ألماً ، إما بحفر السن وعلاجها أو بخلعها أو بغزيرة المخدر ، وأنا لا أريد لابنتي أن تتألم ، لذلك سنؤخر الذهاب إلى الطبيب أسبوعاً أو أسبوعين أو شهراً أو شهرين.

(١) السن لفظة مؤنثة ، وأكثر الناس يخطئون فيذكرونها.

هل يمكن أن يكون هذا ما تقولينه؟! إنك أعقل من أن تؤخري أمراً خوف الألم وأنت تعلمين أن الألم يزداد بتأخيره. وكذلك العلاج في الحالة التي عرضتها في هذا السؤال: إذا وافقت على ضرورة إخراج البنت واستقلالها بالنوم في غرفة خاصة بها فلا تؤخري تنفيذ هذا القرار، فإنها تزداد تعلقاً بك وبالنوم في غرفتك كلما مرّ يوم، فإن كان هذا الأمر سهلاً فإنه يصير صعباً، وإن كان صعباً سيغدو أكثر صعوبة.

إن لنوم الطفل في غرفة نوم والديه ما يبرره في الشهور الأولى من العمر، فهو يرضع في فترات متقاربة ويحتاج إلى الرعاية المستمرة، لكن الأمر يبدأ بالتغير بمرور الشهور بحيث يصبح انفصاله ممكناً منذ الشهر التاسع مثلاً حين تتباعد فترات الرضاعة وتقل الحاجة إلى الرعاية، ولعل أقصى وقت ينبغي إخراج الطفل فيه من غرفة نوم أبويه هو تمام السنتين من العمر.

أما المخاطر التي تنشأ من مشاركة الطفل أبويه في غرفة نومهما فيعرفها كل المربين ولا تحتاج إلى برهان، فهو لا بد أن يلاحظ علاقة أبويه الخاصة ولو

كان صغيراً، فإن كان كبيراً بدرجة كافية فسوف يدرك ما يقع بين أبويه من أحداث خاصة، وإن كان أصغر من أن يفهم فإن عقله الباطن يخزن المشاهد التي تستقبلها عيناه والأصوات التي تستقبلها أذناه، وهو يفسرها تفسيرات شتى قد يعود عليه بعضها بالضرر الجسيم. وفي أقل الحالات ضرراً سوف يلاحظ من تقارب أبويه ما يُشعره بأن كلاهما أقرب إلى الآخر منهما إليه، فيؤثر هذا في نفسيته ويُشعره بالنبذ والإقصاء.

هذا كله هو مبلغ الضرر الذي قد ينشأ لو كان هذا الطفل وحيداً أبويه (كما يبدو من سياق السؤال هنا)، أما إذا كان له إخوة واستأثر هو من دونهم بالنوم في غرفة أبويه فالقصة لها بُعد آخر، فمثل هذا التصرف من شأنه أن يثير حفيظة إخوته الآخرين ويُشعرهم بعدم العدالة، وسوف يكون الضرر أبلغ ما يكون إذا كان لهذا الطفل الصغير أخ آخر واحد لا إخوة متعددون.

* * *

الاستلقاء مع الطفل قبل النوم

ابنتي الصغيرة لا تنام إلا إذا استلقيتُ إلى جوارها أو جلستُ في سريرها وعانقتها حتى تغفو، وقد يطول الوقت أحياناً قبل أن تستغرق في النوم فيضيع مني وقت طويل، وأخشى إن أنا تركتها وحدها أن يتسلل الخوف إلى قلبها أو تحس بالوحدة أو الوحشة فلا تنام، فهل ينبغي أن أتوقف عن هذه العادة أم أستمِر فيها؟

الأصل أن الأطفال يوضعون في أسرّتهم فينامون وحدهم، أما ما صنّعه صاحبة هذا السؤال من تعويد الطفلة على الاستلقاء بجوارها حتى تغفو فلا يحسن أن يستمر، ونصيحتي هي أن تتوقف عن هذا السلوك في أسرع وقت، على أن تتدرّج في توقفها ولا تقطع عاداتها فجأة فتسبب للبنت القلق. فإذا كان من عاداتها أن تُمضي مع البنت وقتَ النوم نصفَ ساعة فلتُنقص هذه المدة إلى خمس وعشرين دقيقة وتستمر على ذلك أسبوعاً، ثم تنقصها خمس دقائق في الأسبوع الثاني، وفي الثالث خمساً أخرى... فإذا صارت مرافقتها لابتها في سريرها بطول عشر دقائق فهذا حسن كما قلت آنفاً.

الفكرة الأساسية التي أحب أن تصل إلى الأمهات هنا هي أن مرافقة الطفل في الفراش حتى يستغرق في النوم ليست أمراً حسناً، بل إن لها من الضرر أكثر مما لها من النفع، فالطفل يخشى أن يبقى منفرداً في سريره في غرفة مظلمة بابها مغلق، فإذا رافقناه ولم نتركه إلا وهو مستغرق في النوم فكأننا نعتزف -ضمناً- بأن لمخاوفه ما يبررها، وكأننا نقول له: إننا نحرسك ونحميك لأنك لن تكون في أمان في هذه الغرفة وحدك في الظلام!

من أجل ذلك أوصي الآباء بأن لا يَسْنُوا هذه السنة أبداً، فالشروع بها يُعوّد الطفل عليها، والاستمرار فيها يُصعّب الإقلاع عنها، بل عليهم أن يجعلوا الوضع الافتراضي لنوم الطفل أن يستلقي في سريره ويُطفأ نور غرفته ويُغلق بابها، فينام منفرداً في الظلمة والهدوء.

على أن للدقائق الأخيرة التي يُمضيها الطفل في السرير قبل النوم قيمة عظيمة، فلا ينبغي على الأبوين الحكيمين أن يُهدراها بغير فائدة، بل عليهما أن ينتفعا منها غاية الانتفاع. لذلك اقترحت ذات مرة، وأعيد الآن، أن مصاحبة الطفل إلى سريره والجلوس

معه فيه ربع ساعة أو نحوها أمر حسن، ففي هذه الدقائق الأخيرة من اليوم يكون الطفل قد فرغ من العمل كله، هزله وجدّه، واستعد ذهنه للانتقال إلى عالم النوم المريح، فهي ساعة صفاء واسترخاء يتفتح فيها ذهنه للاستقبال، وما أكثر ما تريد أن توصليه إليه عندئذ.

يمكنك أن تحكي بعض الحكايات، وهي وسيلة تربوية عظيمة يغفل عنها أو يسيء استعمالها أكثر المربين، ويمكنك أن تسردى عليه قطعاً من ذكريات طفولتك وشبابك، وهي أيضاً وسيلة تربوية إذا أحسنت استعمالها، ويمكنك -إن شئت- أن تستبدلي بالكلمات لمسة أو ضمة توصلين إليه بها رسالة محبة واهتمام، ولا سيما إذا كان في حالة من التعب أو النعاس تُعجزه عن متابعة القصص والحكايات... في كل الأحوال يمكنك أن تفعلي الكثير في هذا الدقائق القليلة.

بعد ذلك أعلني الختام الرسمي لحضورك في تلك الليلة بطبع «قبلة المساء» على خد الطفل، وأطفئي النور وأغلقي الباب وانسحبي بهدوء.



علاج الطفلة من مشكلة حساسة

لي ابنة عمرها أربع سنوات، وقد لاحظت منذ سنة تقريباً أنا وزوجتي أنها تعتمد حكّ منطقة فرجها بأي شيء بارز، مثل زاوية الطاولة أو الكرسي. لم أنبهها أبداً ولم أنهها عمّا تفعله، ولكنني أحاول صرف انتباهها عندما أراها تفعل ذلك بمناداتها والتحدّث معها بأي شيء، وهي تستجيب بشكل سريع.

أنا أعلم أنها صغيرة وأنها تفعل ذلك بشكل لاإرادي، وسؤالي هو: هل من الممكن أن يستمرّ هذا السلوك معها عندما تكبر؟ وكيف أصرفها عن هذا العمل؟ مع العلم بأنها لا تنام معنا في غرفة واحدة، فلها غرفتها الخاصة منذ كان عمرها سنتين، ونحن حريصان -أمها وأنا- على عدم إطلاعها على علاقتنا الزوجية الخاصة منذ كانت رضيعة.

(١)

مقدمة وتشخيص

الأسئلة تدل على مرسلها، وهذا السؤال يدل على أب يملك قدراً عالياً من الوعي والحكمة

والقدرة على التصرف. باختصار يمكنني القول أنك بدأت بشكل جيد حينما نقلت بنتك الصغيرة من غرفة نوم والديها في وقت مبكر نسبياً، فهذه ممارسة تربوية صحيحة يغفل عنها كثير من الآباء، ولن أستطرد هنا في بيان مضارّ ومخاطر تأخر الوالدين في إخراج الطفل الصغير من غرفة نومهما، ولعلي أعود إليه ذات يوم إذا دعت الحاجة.

الأمر الآخر الذي دلني على حكمتك وحسن تصرفك أنت وزوجتك هو الأسلوب الذي عالجتما به المشكلة. إن كثيراً من الآباء والأمهات يلجؤون في مثل هذه المواقف إلى أساليب طائشة ومباشرة وعنيفة تضخم المشكلة وتصعب حلها.

أما أنتما فقد تجاهلتما هذا السلوك واخترتما «تقنية صرف الانتباه». وعلاجكما كان صواباً تماماً، لأن تجاهل سلوك من هذا النوع يقلل أهميته في العقل اللاواعي للطفلة، أما المبالغة في الاهتمام به فكانت ستحوّله إلى قضية مهمة، والقضية المهمة جديرة بالتفكير والتقصّي. كما أن تجاهله سيحول دون تثبيت الطفلة به، لأن الاتجاه الفطري للنفس البشرية هو الحرص على ما تُمنع منه.

أحب أن أطمئنك إلى أن هذه المشكلة ليست خطيرة ولا هي نادرة، فكثير من الصبيان والبنات يتنبّهون في سن مبكرة إلى أن لمس أجزاء معينة من الجسم أو حكّها يورثهم شعوراً مختلفاً عن الشعور الذي يحصلون عليه من مسّ وحكّ سائر أجزاء الجسم، بل إن كثيراً من المراجع التربوية الغربية تزعم أن كل الأطفال «يمارسون» عادات ذات نوعية «جنسية» في بعض مراحل حياتهم المبكرة. وهو زعم عليه الكثير من التحفظ لأن المنهجين التربوي والنفسي يدوران في الثقافة الغربية كثيراً حول المسألة الجنسية، بل إن بعض النظريات النفسية والتربوية الأساسية قد أنشئت عندهم على ما يسمونه «العقدة الجنسية»^(١)، وفي ذلك كله كثير من المبالغة وكثير من البطالان.

(٢)

العلاج

الذي يهمنا من النقطة السابقة هو تأكيد أن مشكلة طفلتك ليست من النوع الخطير، فاطمئن

(١) متأثرين بمدرسة فرويد في علم النفس.

أولاً، ثم لنبدأ بالعلاج، وهو يسير بإذن الله.

لقد أحستما صنعاً أنت وزوجتك بالمثابرة على صرف انتباه الطفلة كلما لاحظتما عليها القيام بهذا الأمر، وهذا تصرف جيد جداً كما قلت آنفاً، وسوف نعتمد على هذه التقنية في علاجنا، مع واحدة أخرى هي «التحويل»، وهي تقنية شائعة في العلاج النفسي.

المدخن مثلاً يوصف بأنه مُدمن لأن المادة الفعالة في الدخان (وهي النيكوتين) توجد في دمه بنسبة مرتفعة، وكلما نقصت شعر بحاجة لإرادة إلى إعادتها لمستواها السابق، فيسحب من جيبه دَخينة (لفافة) ويبدأ بتدخينها. إحدى طرق العلاج لا تقطع عن المدخن دخائنه بلا بديل، بل تحوّل مصدر الاكتفاء الذي يسعى إليه إلى مادة أخرى هي أقراص يمضغها فيها قدرٌ من النيكوتين أقلّ من القدر المألوف. ومرة بعد مرة «تتحول» عادة المدخن من التدخين (سحب الدخان ونفثه) إلى المضغ، وتتناقص حاجته إلى المادة الفعالة ذاتها لأنه يحصل منها على نسبة أقل مما ألف سابقاً، وفي نهاية المطاف ينتهي من ذلك كله.

لنعمد طريقة مشابهة. كما تعلم فإن أجسامنا مزودة بنسيج ناقل للإحساس ، هو طبقة الجلد الذي يغطي الجسم كله. هذا النسيج الجلدي هو الأداة التي تمدنا بإحدى حواسنا الخمس اللازمة للحياة، وهي حاسة اللمس، حيث تنقل شبكة الأعصاب الدقيقة المنتشرة في طبقة الجلد إشارات إلى الدماغ، يفسرها حيناً بالألم إذا مسّ الجلد جسمٌ شديد الحرارة أو شديد البرودة، وحيناً بالاسترخاء واللذة إذا مسّه جسمٌ ناعم بحركة خفيفة، وبمشاعر أخرى مختلفة في غير هذا وهذا. وليست طبقة الجلد كلها على درجة واحدة من الحساسية، فباطن الكف أكثر استجابةً للمسّ من ظاهره، والنحر (الجهة الأمامية من الرقبة) أشد حساسيةً من القذال (الجزء الخلفي منها)، إلى غير ذلك من الاختلافات.

يمكنك أن تفكر في أكثر من خيار لتطبق عليه علاج التحويل المطلوب، وأنا أرشح الظهر لأنه مساحة جلدية واسعة وحساسة معاً، وسوف يولد تدليكُه تدليكَاً لطيفاً شعوراً من الاسترخاء والخدر، قد لا يعدلان الإحساس الذي حصلت عليه الطفلة من عملها الأول لكنه لن يكون بعيداً عنه كثيراً.

والآن ابدأ أنت وأم الطفلة باحتضانها وتدليك ظهرها بنعومة ولطف، وسوف تستمتع بالعاطفة والدفع اللذين يمدُّهما بها حَضْنُ والديها وبالشعور اللطيف المتولد من مَسَّ ظهرها وحكّه أو تدليكّه. هذا المزيج من المشاعر يعوّض بإذن الله ذلك الشعور الآخر إلى حد كبير، فأكثرنا منه وكرراه في اليوم مرات، ولا سيما حين تلاحظ عليها ما وصفته في رسالتك أو قبل نومها كل ليلة.

(٣)

الوقاية

إذا كان الأسلوب السابق هو العلاج لمثل هذه المشكلة، وهو مهم، فإن الوقاية قد لا تقل أهمية. نحن نتحدث عن طفلة بريئة خالية من التصورات والمعلومات المسبقة، وإنما هي قد اهتدت إلى هذا الأمر مصادفة، فلنجهد في منع مثل هذه المصادفات في المستقبل بأن نحول دون التولد العفوي لهذا الإحساس، وذلك بتغيير نوع اللباس الذي تلبسه. في هذه الحالة بالذات أنصح بأن يصبح اللباس القياسي في الجزء الأسفل من الجسم بنظائراً من القماش الثقيل (الجينز) الذي يمنع نسيجه القاسي انتقال

تضاريس الأجسام الخارجية ويحول دون الإحساس الدقيق بها.

أرجو الله أن تجد في كل ما سبق علاجاً لهذه المشكلة. ولا أريد أن أثير مخاوفك، لكن المفترض أن يكون جوابي على مسألتك كاملاً، لذلك سأقول كلمة أخيرة: لو أن المشكلة استمرت خلال السنوات الآتية أو تفاقت لا قدر الله (وهو أمر قد يحدث، ولكنه نادر جداً بحمد الله) لو أن هذا حصل فخذوا الطفلة إلى طبيبة نسائية، فربما كانت تعاني من مشكلة تحتاج إلى تدخل طبي.

* * *

مشكلة حساسة أخرى

أنا معلمة وقد استشارتني والدة إحدى التلميذات تريد حلاً لمشكلة ابنتها التي لم يتجاوز عمرها خمس سنوات، وهي كما يلي: منذ أن كان عمرها سنتين تقوم بتصرف غريب إذا أرادت النوم، هو أنها تنام على بطنها مع ضمّ يديها وقدميها إلى الأعلى ومع الضغط الشديد بجسمها على الأرض حتى تسترخي تماماً، ثم تنام بعد ذلك. علماً بأنها في بداية هذه الظاهرة كانت تحاول أن تختفي عن أنظار مَنْ حولها في المنزل، لكنها الآن لا تهتمّ وتقوم بهذا العمل أمام الكلّ وبأي مكان، وتكرره من أربع إلى خمس مرات في اليوم. استشار والدها أخصائياً فأخبره أنها قد تكون كمن يمارس العادة السرية. هذا ما استطعت معرفته، وكلّي ثقة بعد الله بأن أجد منكم الإرشاد والتوجيه لما يجب فعله لعلاج هذه الطفلة.

حاولت كثيراً أن أفهم الهيئة التي تتخذها الطفلة قبل منامها، لكنني أخفقت. ما معنى أنها تنام على بطنها مع ضمّ يديها وقدميها إلى الأعلى؟ الضغط

الشديد بالجسم على الأرض مفهوم، لكن بقية أجزاء الصورة غير واضحة.

الأمر الآخر الغريب في السؤال هو الإشارة إلى استشارة طبية انتهت بتعليل للظاهرة دون ذكر أي شيء عن العلاج المقترح. هل سمعت قط أن مريضاً يذهب بشكواه إلى الطبيب، فيشخص له مرضه ثم يرافقه إلى باب العيادة "مودعاً بمثل ما استقبل به من ترحيب"؟ أين العلاج؟ ولماذا يراجع الناس الأطباء إن لم يكن من أجل الدواء؟

لنقفز من فوق ذلك كله ولنجتهد في فهم المشكلة وعلاجها. الذي استطعت أن أتخيله -من الصورة التي وُصف بها سلوك الطفل- يحملني على استبعاد تشخيص الطبيب المذكور، فهذا الوصف لا يوحي بأنه ممارسة لعمل ذي طبيعة جنسية. ولعل الطبيب متأثر ببعض النظريات التربوية الغربية التي تزعم أن كل طفل يمارس «نشاطاً ذا طابع جنسي» في طفولته المبكرة! وقد نشأت هذه النظريات في علم النفس الغربي المعاصر متأثرةً بأفكار فرويد عن «الدافع الجنسي»، فهو يذهب إلى جعل «الجنس» دافعاً أساسياً للسلوك البشري، ويرى أن هذا الدافع

يؤثر في الإنسان منذ الطفولة المبكرة، بل منذ الولادة، وأن حياة الإنسان هي مراحل متعاقبة من «النمو النفسي الجنسي».

هذه النظرة المبالغ فيها إلى «الدافع الجنسي» كانت قاعدة نشأت عليها مدرسة نفسية تنجح إلى تفسير أكثر مظاهر السلوك الإنساني والعادات البشرية بالغريزة الجنسية، وتجعل من السلوك الجنسي أساساً للسلوك البشري. وقد ووجهت هذه النظريات الغريبة بانتقادات حادة في الغرب المادي قبل أن تواجه بمثل ذلك في الشرق المسلم، وانتقد عدد كبير من علماء النفس فرويد ونظرياته لأنها آراء افتراضية وليست من الحقائق التي يمكن إثباتها بالتجربة. هذا أولاً، وثانياً لأن فرويد توصل إلى استنتاجاته اعتماداً على حالات مَرَضِيَّة شاذة كان يعالجها، لا على الناس الطبيعيين، ومن ثم فإنه وقع في خطأ علمي كبير حينما فسّر السلوك المَتمَرّن للناس الأسوياء بما لاحظته من سلوك شاذ لدى المرضى.



لندع هذا كله ولننتقل إلى مشكلتنا الحالية. لعلك تتابعين هذا الباب في موقع «الألوكة»، وإذن

فلا بد أنك قرأت الجواب المفصّل الذي نُشر من قريب ردّاً على مشكلة مشابهة. إن كنت لم تقرئيه فأرجو أن تفعلني، وهو بعنوان «علاج الطفلة من مشكلة حساسة»^(١)، ولعلك تجددين فيه بعض العون بإذن الله.

على أنني أحب أن أنبهك إلى أنّ بين الحالتين بعضَ الفروق. نعم، قد تجتمعان في الشكل العام وقد يصلح هنا شيء من العلاج الذي يصلح هناك، ولا سيما ما كان على سبيل الوقاية، لكن لاحظني الفرق: في هذه الحالة لا تمارس الطفلة سلوكها الغريب هذا إلا قبل النوم، أما في الحالة الثانية فإنها يمكن أن تمارسه في أي وقت. الفرق الآخر هو في طبيعة التماسّ بين بدن الطفلة والمادة الخارجية: في حالتنا هذه أراه مقتصرّاً على الضغط، وهو حك وتحريك في الحالة الأخرى.

هذان الاختلافان يوحيان بحالة من نوع آخر، فبينما هي بحث عن «شعور بلذة غامضة» في الحالة

(١) للفائدة حرصت على ترتيب المقالتين متتاليتين عندما جمعت المشكلات في هذا الكتاب.

الأخرى فإنها تبدو في حالتنا هذه أقرب إلى «العادة القسرية»، كعادة مصّ الإصبع وعادة قرض الأظافر. هذه العادات القسرية يعرفها كل الآباء والأمهات، ولا سيما مص الإصبع، وهو قد يكون شديداً في بعض الأحيان حتى ليتسبب في ظهور التشققات والندبات مكان المص. وقد يستعيض الطفل عن مص الإصبع بمص طرف اللحاف أو بالقبض الشديد عليه، أو بشد الأذن أو الشعر، أو بهزّ الرأس بحركة مَرَوَحِيَّة إلى اليمين والشمال أو إلى الأعلى والأسفل، أو بِعَضِّ الشفة، أو حَكِّ الأسنان العليا بالأسنان السفلى، أو قرض الأظافر (وهي عادة متأخرة، ينذر أن تبدأ قبل الثامنة).

هذه العادات يمكن أن تبدأ في مرحلة مبكرة من عمر الطفل، منذ الشهور الأولى، وتبلغ ذروتها بين الشهر الثامن عشر والواحد والعشرين، ويغلب أن تتلاشى بعد ذلك بالتدرّج، لكنها قد تستمر إلى السنة السابعة أو إلى الثامنة في بعض الأحيان.

ولعل أهم ما يتعلق بهذه «العادات القسرية» أنها تشتد وقت النوم حتى ليصعب على الطفل أن ينام إلاّ بها، وهذا ما يحملني على افتراض أنّ تصرف الطفلة

الموصوف في هذه المشكلة من هذا النوع من أنواع السلوك.

من العلامات الأخرى التي يمكن أن تؤيد هذا الافتراض طبيعة الطفلة، فإذا كانت تميل إلى الوحدة والانزواء أو تبدو عليها مظاهر الكبت والحزن، أو إذا كانت -على الأقل- تفتقر إلى الحيوية والابتهاج اللذين يُلاحظان عند الأطفال الأسوياء، إذا كان أيُّ من ذلك ملاحظاً فالأرجح أن الطفلة تعاني من الحرمان العاطفي، أو أنها تتعرض لضغط نفسي تُنفس جزءاً منه بذلك السلوك الذي وُصف في السؤال.

ثم إن العادات القسرية التي أشرتُ إليها قبل قليل تزداد في بعض الحالات التي يعاني فيها الطفل من مشكلة عضوية، كالجوع والألم والنعاس، وفي أوقات الإثغار (بروز الأسنان)، وتزداد أيضاً في حالات القلق والتوتر، ويغلب أن تتحول إلى مشكلة مزمنة في حالة تعرض الطفل تعرضاً مستمراً للقسوة والعنف أو حرمانه بشكل طويل من العاطفة والمحبة.

* * *

الخلاصة: ينبغي أن نعرف الدافع إلى هذا

السلوك، فإذا كان بحثاً عن شعور عابر باللذة (وهو الأمر الذي أستبعده) فإن الحل الذي قدمته سابقاً في مشكلة «علاج الطفلة من مشكلة حساسة» سيكون مفيداً هنا، أما إذا كانت «عادة قسرية» (من النوع الذي أفضتُ في شرحه في الفقرة السابقة، وهو ما يغلب على الظن) فعلاجها في معالجة أسبابها، أما مقاومة «العادة» نفسها فلا طائل منها ولا تأتي إلا بمزيد من التشبث بها.

فإذا كنتَ مهتمةً بعلاج جذري لهذه المشكلة فابحثي في البيئة النفسية والعاطفية التي تعيش فيها الطفلة، واحرصي على أن تكون بيئة نفسية سوية تتلقى فيها الطفلة القدرَ الكافي من العاطفة والاهتمام، وأرجو أن تزول هذه المشكلة عندئذ بتوفيق من الله.



قسوة لا يجوز السكوت عنها

هذه رسالة وصلتني ليس فيها سؤال فأجيب عنه، بل فيها مشكلة ترجوني صاحبة الرسالة أن أجد لها حلاً. وخلاصة المشكلة أن ابنتها في السنة الابتدائية السادسة، ولها صديقة أو زميلة في فصلها تتغيب عن المدرسة بين وقت وآخر، ثم تأتي وآثارُ الجَلْد على جسمها والحروق على يديها! وهي تتمنّع عن التصريح بما يقع لها، لكن التلميذات كلهن والمعلمات كذلك صرن عالمات بما يحدث لها، فكل ذلك يصنعه به أبوها كلما جاءت نتيجتها المدرسية أقلّ من الكمال أو نالت درجة دون الدرجة الأولى في فصلها.

هذه هي المشكلة، فماذا أصنع، وكيف أحلها؟

الحق أن هذا الرجل لو أدركه هولاءُكو لضمّه إلى حرسه الخاص، ولو أننا لبَيَّنّا فيه نداء المنطق لوضعناه في الأقفاص مع الوحوش والسباع، فما هو بأقل خطراً ولا أهون ضرراً منها! وأنا ما زلت أسمع عن آباء من مثل هذا النوع، وأتساءل: أيُّ صنف من

الخلق هم؟ فالإنسانية تأبى أن ينتسب أمثالهم إليها،
والدين والقانون والرجولة منهم براء، فأى شيء هم
إذن؟ لا أدري!

هذا الأب المجرم الأحمق ارتكب خطأ
وخطيئة، فأما الخطأ فقد أدخل ابنته في دوامة الفشل
والسقوط، لأن الرعب سيسيطر عليها كلما همت
بالدراسة، إذ تتخيل هذا العقاب الجنوني نازلاً بها
وهي لا تملك له رداً ولا دفعاً، فيتصاعد توترها
ويستبدّ الذعر بها حتى يصرفها عن الدراسة ويشغلها
عن الحفظ فتراجع ويتدنّى مستواها، وما يزال هو
يزداد عقوبة لها وتوحشاً عليها... وهكذا في دوامة
يجرّ بعض أطرافها بعضاً إلى حيث لا نهاية!

وأما الخطيئة فلأنه قد حطم في نفس هذه
الفتاة الصغيرة جملة من الفضائل والمعاني يُخشى
أن لا يلتئم حُطامها أبداً الحياة: «حب العلم» أولاً،
لأنه صار قريناً للعذاب والمعاناة، و«الرحمة» التي
لم تعرفها ممن ينبغي أن يكون أرحم الخلق بها،
و«العدل» الذي حطمه هذا الأب الظالم بظلمه،
و«الأمان» الذي افتقدته وهي طفلة صغيرة ضعيفة
لا قدرة لها ولا قوة، و«البراءة» التي تعمر قلوب

الأطفال وقد اغتالتها هذه الجريمة.

إن هذه الحالة لا يمكن أن تستمر، فهي لا بد أن تنتهي عما قريب بأحد طرفيها في السجن وبالطرف الآخر في المستشفى، إن لم يكن في القبر. ولو أن الأمر طال فسوف تكسب المصحات العقلية زبوناً جديداً بالتأكيد! لذلك لا بد من تحرك سريع، ولا يصح لأحد من الناس علم بمثل هذا العدوان المخيف على الطفولة وعلى الإنسانية أن يبقى بلا عمل.

البلاد فيها قوانين وفيها محاكم وقضاة وفيها أجهزة للأمن، وهذه الجريمة من اختصاص هؤلاء كلهم أو بعضهم، فاحملوا نأها إليهم، وإن لم تُحلّ بهذا الطريق فانشروا الخبر في الصحف، فإن الصحف ترحب بهذه القصص وتبني عليها الفصول الطوال من التحقيقات والمتابعات، ولعل الخبر إذا انتشر حرك من أصحاب النفوذ من لم يكن تحرك، فوضع لهذه المأساة نهاية.

هذا ما أراه وما أقترح فعله، أما أنا البعيد عن المشكلة وأصحابها فليس لي إلا الدعاء، الدعاء لهذا الأب المجنون أن يهديه الله عقلاً وقلباً، فإن

كان أهونَ على الله من أن يرزقه العقل والقلب فأرجو
أن يصرفه عن البنت بأيّ طريق. والدعاء للبنت بأن
يُخرجها الله من المحنة التي هي فيها، وأن يبدلها بما
مضى من أيام البؤس أيامَ فرح ونعيم.

* * *

حل الواجبات المدرسية نيابة عن الصغار

أختلف دوماً مع زوجتي بشأن مساعدة ابنا الصغير في واجباته المدرسية، فهي تحلّ له كثيراً من الواجبات، بل تكتب له أحياناً فروض الخط، وأنا أعترض وأحتجّ منادياً بضرورة ترك الولد ليتعلم وحده. إنه الآن في السنة الابتدائية الرابعة، وأخشى فعلاً أن يتراجع تحصيله العلمي.

الحقيقة أن كل طفل يحتاج إلى بعض العون والمساعدة في تحصيله المدرسي، وإذا كان الجزء الأكبر من هذا العون مما ينبغي أن يتلقاه الطفل في المدرسة ذاتها فإن المؤسف أن هذا غالباً لا يحصل، مما يزيد العبء على الوالدين في البيوت.

المهم أن نتذكر دائماً: الطفل يحتاج إلى مساعدة الراشدين ليقوم بنفسه بالعمل المطلوب، ولكنه لا يحتاج -قطعاً- أن يقوم عنه الراشدون بهذا العمل.

قد تكون هذه هي أهم نصيحة في هذا الباب: "إياكم، إياكم، في أي حال كان وتحت أي ظرف

من الظروف، أن تقوموا بعمل أبنائكم المدرسي أو تكتبوا عنهم واجباتهم، أو تحلّوها لهم على أوراق منفصلة وتطلبوا إليهم نسخها في دفاترهم".

إن هذا كله ليس سوى احتيال على الواجب المدرسي الذي لم يُفرض على الطالب -أصلاً- إلا في سبيل تقوية قدرته العلمية وتمكينه من التعلم الصحيح. ولربما تظن بعض الأمهات أنهن يُحسنن إلى أولادهن حين يُنجزن العمل المطلوب بالنيابة عنهم فيوفرن عليهم عناء العمل أو يجنبنهم العقوبة على تركه وإهماله. ولكن الذي يحصل أن الأطفال يصبحون اتكالين، ويتعلمون أن الغش مقبول، وفوق ذلك كله تفوتهم الفرصة الحقيقية للتعلم. بدلاً من ذلك إليكم أسلوباً أكثر نفعاً لمساعدة أولادكم في المدرسة:

(١) ازرعوا في نفوس أولادكم احترام العلم ومحبة المعرفة، واجعلوا فكرة «ارتباط التعلم بالنجاح في الحياة» واحدة من أكبر الحقائق في عقولهم الظاهرة والباطنة.

(٢) لا تجعلوا همّكم الأكبر وهمّ أولادكم الحصول على العلامات العالية والدرجات

المرتفعة، بل ركزوا اهتمامكم على وصولهم إلى المعرفة المفيدة وحصولهم على العلم النافع.

(٣) أظهروا الاهتمام بتقدم أولادكم في المدرسة. ليكن السؤال اليومي: "ماذا فعلتم في المدرسة اليوم؟". امدحوا كل إضافة جديدة أو معلومة مفيدة حصل عليها الأولاد في المدرسة، وأغدقوا الإطراء والثناء على كل إنجاز جيد.

(٤) إذا شعرت أن ابنكم يواجه مشكلة في المدرسة فلا تتأخروا في مراجعة الجهة المعنية: الإدارة أو المدرّس أو المشرف، وتأكدوا من حل المشكلة بالطريقة الصحيحة.

(٥) اعتمدوا أسلوب التشجيع والمكافأة لا أسلوب العقاب والحرمان. إذا قدّم ولدكم أكثر مما هو متوقّع منه فأثنوا عليه، وإذا ارتقى مستواه في دورة عن التي قبلها فقدموا له شيئاً يسرّه: هدية صغيرة أو نزهة يتمنّاها أو أي نوع من المكافأة.

(٦) اجعلوا التعلم عملية ممتعة حية مستمرة في كل الأوقات. اطلبوا من ابنكم الذي بدأ بتعلم حروف الهجاء أن يقرأ لوحات المحلات ولافتات الطرق وأنتم تصاحبونه في السيارة. اسألوا أولادكم

دائماً أسئلة تحفيزية تناسب أعمارهم: "كيف ينزل المطر؟"، "لماذا يغلي الماء في وقت أقصر إذا غطينا الإناء؟"، "من اخترع المصباح الكهربائي؟"... واجعلوا زيارة المُتَنَزَّهات العلمية (كحديقة الحيوان ومتحف العلوم وأمثالهما إذا كانت موجودة في منطقتكم) جزءاً من برنامج الترويح العائلي.

(٧) وأخيراً عودة إلى الواجبات المدرسية: لتحرص الأم على مراجعة تكليفات الطفل اليومية ولتتأكد من أنه نفذها بقدر الوسع، ولتكن مراجعتها اليومية لذلك في وقت مبكر نسبياً ليُمكن تدارك ما يحتاج إلى تدارك دون تأخير موعد النوم، وقدمي دائماً المساعدة اللازمة ليفهم ولدك ما هو مطلوب منه، وعلميه -إذا اقتضى الأمر- كيف يجيب عن السؤال أو يحل المسألة ولكن دون أن تجيبي أو تحلي المسألة بنفسك.

* * *

التوافق الاجتماعي في المدرسة

نحن مغتربون نعيش في بلد عربي تتوفر فيه مدرسة للجالية يمكن أن يدرس فيها طفلنا الصغير، فهل نحرص على دراسته فيها (رغم أن أقساطها مرتفعة والوصول إليها صعب نسبياً بسبب بعدها عن محل إقامتنا) أم نضعه في المدارس المحلية القريبة؟ سبب الحيرة هو أن الطفل سيكون غريباً في لهجته وعاداته عن بقية التلاميذ، وربما أعاق هذا الاختلاف قدرته على الاندماج والقبول وتكوين الصداقات.

من الأطفال من يميل بطبعه إلى الاختلاط وتكوين العلاقات لأنه من «الشخصيات الانبساطية» التي تنجح في مدّ الجسور مع الآخرين، فيقبلونه ولو كان من نوع مختلف. ومنهم من يميل إلى «الشخصية الانقباضية» فيفشل في الاندماج، وقد يفسّر سلوكه غير الاجتماعي تفسيراً سلبياً (فوقية أو عدوانية مثلاً) فيزداد الأمر سوءاً مع زملائه.

ثم إن الأوساط الطلابية تختلف في مستويات القبول، فبعض البيئات توصف بأنها بيئات رافضة أو طاردة، وبعضها الآخر على العكس من ذلك أو

أقرب إلى الاعتدال ، كما يختلف أيضاً مستوى تفهّم
وتجاوب وتعاطف المعلمين والمعلمات.

فلما كنتُ عاجزاً عن تقديم الجواب الدقيق
لجهلي بكل هذه المعطيات فإنني أكتفي بالتوصية
العامة: راقبي درجة انسجام طفلك مع الطلاب وأبقي
عيونك مفتوحة ، على الأقل خلال الشهر الأول أو
الأسابيع الأولى من السنة الدراسية ، وأنت أم وقلب
الأم لا يخطئ ، فإذا شعرت أن الأمور تسير على
ما يُرام فمعنى هذا أن التجربة ناجحة بفضل الله ،
وإذا شعرت بمشكلة فلا تتجاهليها بل ابحثي عن
التفاصيل وافهمي الحالة واقدري لكل حالة قدرها ،
ولو وجدت ما يستدعي نقله إلى المدرسة الأخرى
فلا تترددي لأن سلامته النفسية وانسجامه مع زملائه
ومعلّميهِ في المدرسة أهم من الجهد والمال.



تعرّض البنت للظلم في المدرسة

سؤال من أم لها بنت صغيرة في المدرسة، تقول أن المعلمة تضرب البنت أحياناً بلا سبب، وقد تطلب منها أن تحلّ مسألة على اللوح (السبّورة) فتتردد البنت بعض التردد بسبب الخجل والارتباك فتهوي عليها بالمسطرة على رأسها أو على كتفها. وقد راجعت الأم المدرسة وشكت إلى المديرية هذا التصرف، كما حرصت على مقابلة المعلمة وأفهمتها أنها لا توافق على ضرب ابنتها أو ظلمها في أي حال. وتقول أن بعض قريباتها لُمّنها على الاستعجال بإظهار هذا القدر من الحزم في مسألة لا قيمة لها، وكان رأيهن أن ترك الطفل ليواجه بنفسه أزمات الحياة ومصاعبها من شأنه أن يقوّي نفسيته ويصقل شخصيته ويجعله قادراً على مواجهة الحياة. وهي تسألني: أيّ المنهجين أقرب إلى الصواب، وماذا تصنع في أمثال هذه المواقف في المستقبل؟

أنا أوافق على ما صنّعه هذه الأم العاقلة، فقد أحسنت بمراجعة المدرسة والتحدث مع المعلمة والمديرية، وهذا التصرف واجب من وجهين:

الأول نفسيّ بحت، فالطفل الذي ضُرب
سيشعر بالوَحدة والخيانة حينما «يتخلى» عنه أبواه
في محنته، وإذا تكررت أمثال هذه الحوادث وبقي
الوالدان على لامبالتهما فسوف ينكفئ على نفسه
ويستسلم إلى اليأس، وبعد ذلك سيصل إلى واحد
من مصيرين: إما أن يتخذ طريق الشراسة والعدوان
على قاعدة "إذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب"، ومن ثمّ
 سيفقد صفات الرحمة والشفقة والعطف والتسامح
التي يحبها الله في المؤمنين، أو ينكسر ويتحول إلى
كائن معدوم الشخصية. وكل واحد من المصيرين
أسوأ من الآخر.

الوجه الثاني الذي يوجب مثل هذا التدخل
عملي تماماً، فمثل هذه المراجعة للمدرسة
والشكوى من الضرب تشكل «درع حماية» للطفل
في المستقبل.

ومما أذكره أنا نفسي أنه كان أحد مدرّسي
أولادي في المرحلة الابتدائية قاسياً، يضرب
الطلاب بلا ذنب ويسيء إلى هذا أو ذاك منهم بلا
سبب، فذهبت إلى المدرسة فتحدثت معه بلهجة
حاسمة، وقلت له -فيما قلت- أنه حرٌّ إن شاء أن

يضرب من الطلاب من لا يبالي آباؤهم بضربهم، أما
أنا فلا أسمح بضرب أبنائي، وأنا نفسي لا أضربهم
ولا أعتقد أن الضرب وسيلة تربوية سليمة.

وقد توقفت شكاوى أولادي منه من بعد،
لكني علمت أنه بقي على شراسته مع سائر الأولاد.

* * *

إكراه الصغار على حفظ القرآن

كنت حريصاً على أن يصبح ابني حافظاً من حَفَظَةِ القرآن، فأدخلته مدرسة من مدارس التحفيظ منذ السنة الابتدائية الأولى، وهو الآن في الثالثة وقد حفظ بعض الأجزاء بالفعل، لكنه يعاني من صعوبة كبيرة في الحفظ ويمضي فيه وقتاً طويلاً جداً، حتى إنني أحرمه من وقت اللهو واللعب ليتفرغ للحفظ، ومع ذلك فلا يكاد ينجح في حفظ ما هو مكلف به إلا بشق النفس، بل إنه يبكي أحياناً من شعوره بالضغط والإحباط. أنا راغب في أن يستمر حتى يصبح حافظاً لكن عدم تجاوبه يقلقني، فماذا أصنع؟

لو كنت مكانك لصنعت شيئاً واحداً، ولصنعته اليوم قبل الغد: سوف أخرج ابني من هذه المدرسة على الفور وأنقله إلى مدرسة من المدارس العادية، التي يدرّس فيها القرآن مقرّراً من المقررات دون الإلزام بحفظه بهذه الصورة المكثّفة.

قد يعارضني كثيرون ويقولون: إنك تفوّت على هذا الطفل فرصة لحفظ القرآن، وهبّه تعب الآن بعض التعب فإنه سيفرح حين يكبر فيجد نفسه من

الحافظين. وأنا أقول: المشكلة ليست في عناء بضع سنين، بل في الرابط السلبي الذي سيرتبط به القرآن إلى عقله وقلبه، بحيث يتحول من نص تطمئن بتلاوته القلوب وتستريح الأنفس إلى نص يضيق الفتى -من بعد- بسماعه ويفرّ من حفظه وتلاوته. هذا هو المصير الخطير الذي يُخشى أن يؤول إليه بمرور الأيام هذا الطفل الصغير، بسبب الضغط النفسي الذي يأتيه اليوم من قبل القرآن.

الأمر الآخر الذي أجدني مضطراً إلى التعرض إليه هو ما ألاحظه على الدوام من قَصْر الاهتمام على الحفظ والمبالغة في طلبه، فأنا أرى المسلمين يتنافسون في حفظ القرآن وتحفيظه أبناءهم حتى يبدو أن الحفظ هو الغاية الكبرى التي يسعون إليها، مع أن المتدبر لآيات الكتاب يجد أن الله تبارك وتعالى -وهو الذي أنزل القرآن وهو أعلم بسبب نزوله- حين خَبَرنا عنه وصفه بأنه ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

ونحن نجد أن الآيات قد تواترت في توضيح هذا المقصد (الفهم والتدبر) وتأكيده، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ؟ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ

غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴿١﴾ وقوله: ﴿٢﴾ أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها؟ ﴿٣﴾ وقوله: ﴿٤﴾ أفلم يدبروا القول؟ ﴿٥﴾، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرات الدالة على هذا المقصد الصريح.

ولا يفهمَنَّ من كلامي أحدٌ أنني أدعو إلى تخذيل الناس عن حفظ القرآن أو أنني أرغب عنه الناس، معاذ الله، إنما أردت أن يدرك العقلاء أن «الحفظ» ليس أسمى المقاصد التي أنزل من أجلها القرآن، بل إن فهمه والعمل به هما الغاية من إنزاله.

لذلك أقترح على صاحب هذا السؤال أن لا يندفع في حماسه يفرض على ولده الصغير منهجاً ييغض القرآن إلى قلبه لا قدر الله، واستبدل -أيها الأب الحريص- بهذا المنهج منهجاً آخر يجعل القرآن محبباً إليه قريباً من مداركه: اقرأ له في كل يوم آيات قلائل وشرحها له شرحاً جذاباً.

لا تقرأ له تفسير الآيات من كتاب، بل افهمها أنت ثم عبّر عن المعنى بكلمات بسيطة من قاموسه الذي يستخدمه ويألفه، لا من اللغة العالية التي يكاد يعجز الكبار عن فهم مفرداتها. وأكثر من الآيات التي

يمكن أن تُسرَد في حكايات ، فالطفل أكثر ما يجذبه
من الأحاديث ما كان في صورة الحكاية ، وما أكثر
أمثال هذه الآيات في القرآن.

* * *

فرض اختصاص جامعي على الشاب

ابننا في نهاية مرحلته الدراسية الثانوية وقد قارب الدخول إلى الجامعة، وأنا وأمه نريد أن نحمله على الاختصاص في قسم الدراسات الإسلامية لما نحبه له من الخير ولما نرجوه له من الفوز في الآخرة، ولكنه يأبى ويصرّ على دراسة الهندسة الميكانيكية التي يهواها لدرجة الافتتان. وهو -بالمناسبة- بارع في الرياضيات النظرية والميكانيكيات العملية ولا ينسجم مع الدراسات النظرية ولا يحسن الحفظ والاستظهار، علماً بأنه متديّن جيد العبادة حسن الخلق. فهل نرغمه على دراسة ما لا يحب؟

قرأت من قديم رداً على حالة من هذا النوع جاء فيه: "إنك تحاول الحصول على الصوف من البقرة، فلماذا لا تحصل منها على اللبن؟". ولا أكاد أجد لسؤالك أبلغ من هذا الجواب.

جوابي واضح لا أتردد فيه: **دع ابنك وما يشاء واترك له حرية اختيار الاختصاص الذي يحب. وإليك أربعة أسباب أرجو أن تقنعك بهذا الجواب:**

(١) الذي يحب علماً يبرع فيه ويتقنه ، أما الذي لا يحب ما يدرس أو يمارس فلا سبيل إلى نجاحه فيه أو إتقانه له مهما كانت الضغوط ، فإذا أنت نجحت في إرغام ولدك على الانخراط في الكلية التي تريد أو القسم الذي تحب فإنك لا تملك أن ترغمه على التفوق في دراسته فيه أو على النجاح في عمله الذي سيتتج عن هذه الدراسة من بعد.

(٢) الطريق إلى الجنة لا يمرّ حصراً بقسم الدراسات الإسلامية بل بالسلوك المستقيم وخوف الله والورع والتقوى ، فإن كانت هذه الصفات في ولدك - كما يظهر من رسالتك - فإني لأرجو له الخير في الدنيا والآخرة. فأما في الدنيا فلأن الله يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ، وأما في الآخرة فلأنه يقول: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ، والله معه سواء أدرَس الهندسة أم سواها: ﴿إِنْ اللَّهُ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

(٣) ولو كان صحيحاً أن على الصالحين أن يتخصصوا في الدراسات الشرعية والإسلامية فمن يدرس الهندسة والطب والإدارة والقانون وسواها

من العلوم والمعارف؟ ومن سيمتهن المهن المختلفة التي تحتاج إلى خبرة ومران؟ أأنت نفسك -أيها الأب الكريم- تحتاج أن تحمل ولدك المريض إلى طبيب يداويه أو تأخذ سيارتك المعتلة إلى ميكانيكي يصلحها؟ أأنت تحتاج إلى معونة نجار أو سباك يصلح لك شأن مسكنك؟ فهل تحب أن يصنع لك كل ذلك الصالحون أم الطالحون؟ إننا نحتاج إلى الورع الصالح في كل موقع وفي كل اختصاص.

(٤) وأخيراً فإن الصغار هم الذين يحتاجون إلى تدخل الوالدين لمساعدتهم في اتخاذ القرار أو اتخاذه بالنيابة عنهم لأنهم لا يعقلون، أما مثل هذا -وقد صار رجلاً- فحريٌّ به أن يتخذ قراره بنفسه وحرِيٌّ بوالديه أن يعيناه على اتخاذ القرار الصائب دون إلزام أو إكراه.

وليتذكر الأب أن ابنه هذا لن يلبث أن يتخرج في الجامعة فيعمل ويتزوج، فهل سيداوم على اتخاذ القرار نيابة عنه في كل حال فيقوده إلى الوظيفة التي يحب ويزوجه البنت التي يشاء، ثم يقرر عنه عدد الأولاد الذين سينجبهم وتوقيت هذا الإنجاب؟!!

إنه سيتوقف -حتمًا- عن مزاوله هذا السلطان،

فما دام سيتوقف في غدٍ فليفعل ذلك اليومَ يَكُنْ أدومَ
للوّدِّ وأدعى لعلاقة وثيقة من الحب والاحترام إلى
آخر العمر بإذن الله.

* * *

انفعالات المراهقين الصاخبة

ابني المراهق صار شديد الانفعال وقد يحتاج
لأسباب تافهة، فهل نترك له المجال في
الانفعالات لأنها خارجة عن إرادته أم نحاول
تخفيفها وامتصاصها حتى لا تصبح عادة؟

(١) المربي الواعي لا يترك خُلُقاً معوّجاً بلا
تقويم، والانفعال المبالغ به خُلُق غير قويم ولو كان
غير مقصود، لذلك ينبغي أن نسعى إلى تهذيبه بلا
ريب.

(٢) الشخص المنفعل ضعيف التلقّي قليل
الاستجابة طالما بقي منفعلاً، فإذا أردنا لتوجيهها
وتقويمنا أن يكون ذا أثر نافذ فمن الخير أن نقدمه بعد
هدوء العاصفة، فنعقد مع المراهق جلسة هادئة في
وقت لاحق نبين له فيها الخطأ الذي ارتكبه ونوجهه
الوجهة الصحيحة بحيث لا يعود إلى حالة الانفعال
الشديد والهياج غير المسيطر عليه مرة أخرى.

(٣) ولئن كانت المعالجة اللاحقة مفيدة فإن
المعالجة السابقة أفيّده، فاتقاء المشكلات أيسر من
معالجتها بعد وقوعها، وهذا مبدأ صحيح في كل

نواحي الحياة. فليستغل الوالدان أوقات الصفاء والاسترخاء التي تجمعهما بانبهما المراهق (وينبغي أن تكون كثيرة) ليزرعا في نفسه الهدوء والسكينة وينميا مقدرته على التحكم في مشاعره وانفعالاته مستعيذاً من الشيطان ومستعيناً بذكر الله.

(٤) على أن تُحدَّ له الحدود وترسم الخطوط الحمراء التي لا يحل له تجاوزها مهما اشتد به الانفعال، فإذا تجاوزها صار لزاماً على الوالدين أن يتدخلوا تدخلاً صارماً، ولو أدى هذا التدخل إلى أسوأ عاقبة متخيَّلة وهي الصدام العنيف مع المراهق. ولا تكون مثل هذه الخطوط الحمراء من مألوف المخالفات ويسيرها، بل هي من التجاوزات الكبرى، كأن يعتدي على بعض مسلّمات الدين أو يتناول على أحد والديه أو يؤذي أحد إخوته أذى شديداً على سبيل المثال.

* * *

كيف أتفاهم مع ابني المراهق؟

ابني عمره ١٨ سنة ويبدو أنه يمر بمرحلة المراهقة، فقد ازدادت خلافاتنا كثيراً وأشعر أن الفجوة تزداد بيننا. وقد فشل في دراسته وترك المدرسة، ثم ترك الصلاة مؤخراً، رغم أنه يحب الدين لكن همّته ضعيفة ويريد أن يستمتع بحياته كما يقول، وهو يعتبرني متشدداً. أرجو منك تقديم النصيحة لكيفية التعامل معه.

بما أن ابنك في الثامنة عشرة فإننا نقول -بالتعبير الأصح- أنه غادر مرحلة المراهقة ودخل في طور الرجولة.

لقد وجدت بخبرتي الطويلة أن أفضل طريقة لإصلاح أولادنا هي أن نفهم المرحلة العمرية التي يعيشون فيها ونعاملهم بالطريقة التي تناسبها، فإن معاملة الطفل الكبير (٧-١٢) وكأنه طفل صغير (٣-٦) يسبب مشكلات وصدمات، ومعاملة المراهق (١٣-١٧) وكأنه طفل كبير يؤدي إلى مشكلات أكبر وصدمات أكثر. أما بعد بلوغهم الثامنة عشرة فلا يصح أن نعاملهم إلا كما نعامل سائر الراشدين من

نساء ورجال، أي أن الأب يعامل ولده كما يعامل
المرء إخوته وأصحابه، ولعل هذا هو معنى المثل
العامي الدارج: «إذا كبر ابنك خاويه».

إذا أدركتَ هذه النقطة سيصبح ما بعدها سهلاً
بإذن الله لأنها مفتاح للحل. فالمرء لا يمارس عادةً
القدرَ نفسه من السلطة على ابنه وأخيه لأنه يرى الأخ
نداً له ولو كان أصغر منه، أما ابنه فيراه أبداً صغيراً
ويميل إلى التحكم بحياته وتفكيره وسلوكه.

فالمطلوب الآن -إذن- هو أن تمنح ابنك
حرية قريبة من الحرية التي يتمتع بها أخوك في دائرة
العلاقة المشتركة بينكما. لكن هل تتعامل مع أخيك
كأنه غريب لا يهتمك أمره؟ لا، بل أنت تنصحه
وتوجهه. نحن نصنع ذلك حتى مع إخوتنا الأكبر
لو رأينا فيهم ما يستحق النصح والتوجيه، ولكننا
نصنعه بنديّة واحترام. المطلوب أن تصنع مع ابنك
شيئاً مشابهاً، مع ضرورة الانتباه إلى نقطة مهمة:
عليك أن تتقارب معه ولكن مع بقاء شعرة من الفرق
الذي يقتضيه مقام الأبوة وتفرضه علاقة البنوة، وهذه
الشعرة يعبر عنها بحكمة دون أن تؤدي إلى شعور
بالجفوة أو الغربة بين الطرفين.

إن بلوغه الثامنة عشرة فرصة ذهبية مناسبة للبدء بتطبيق الحل. أقترح أن تجلس معه في جلسة استرخاء وتقارب ومودة وتصارحه بأنك قررت أن الوقت قد حان للبدء بعلاقة جديدة بينكما بمناسبة بلوغه الثامنة عشرة، لأنه يبلوغها صار رجلاً عُرُفاً وقانوناً. قل له أنك تثق به وأنت لن تعامله معاملة الصغار بعد اليوم، وأنه يبلوغ هذه السن صار صاحب قرار مستقل.

بعد ذلك ستبدأ بمعاملته بنوع من الندية والاحترام. يجب أن يحس بأن طريقة تعاملك معه صارت مختلفة وأنت صرت أكثر ثقة به وبقدرته على اتخاذ القرارات الصحيحة في الحياة. أقترح أن لا تذكر له الدراسة والصلاة في هذه المرحلة، وإذا استأذنتك بأي أمر فقل له: أنت رجل وأنت قادر على اتخاذ القرار الصحيح، ولكنني سأقدم رأيي لأنك طلبته، فإذا اقتنعت به طبقه، وهو كذا وكذا.

إذا تابرت على هذا الأسلوب فأتوقع أن يصلح حاله ويبدأ بالعودة التدريجية إلى الدين والصلاة وإلى التفاهم معك والثقة بك بإذن الله.

* * *

الحدود الزمنية للمراقبة

هل يمكن أن تمتد مرحلة المراقبة إلى
الخامسة والعشرين؟

المراقبة لا تمتد بهذا المقدار، فإذا ما
بقيت أعراضها ظاهرةً على الشاب الكبير الذي
جاوز العشرين (كالصعوبة والشراسة والميل إلى
المواجهة والرفض والتمرد) فأخشى أن يكون هذا
الشاب مصاباً بانحرافات سلوكية مزمنة تستوجب
التدخل العلاجي، وفي هذه الحالة أنصح بمراجعة
اختصاصي اجتماعي أو طبيب نفسي، ولا ينبغي
التقليل من خطورة المسألة أو التهاون في العلاج.

* * *

هوس المراهق بقيادة السيارات

ابني المراهق مهووس بالسيارات، وهو يُلحّ عليّ أن أعطيه المفاتيح ليحرب «مهارته في القيادة» كما يقول، وأنا لا أطمئن إلى ذلك ولا أجيبه إلى طلبه بالطبع، لكنني أخشى أن يسرق المفاتيح بغير علمي ذات يوم وتكون كارثة لا قدر الله. فما هو السبيل إلى السلامة في هذا الأمر؟

خيراً تفعل بممانعتك، فبعض الآباء الحمقى يستهينون بهذا الأمر الجلل ويسلمون السيارات لمراهقين هم أقرب إلى الطفولة منهم إلى الرجولة، بل إنني رأيت ذات يوم رأيَ العين أباً واقفاً على الرصيف ينظر إلى ابنه الصغير وهو يقود سيارته أمامه، وابنه هذا في نحو العاشرة من العمر! هذا ما رأيته بعيني والله شاهد، ما أخبرني به أحد، فلم أستطع أن أحبس نفسي عن التدخل وألقيت على ذلك الأب المستهتر محاضرة في سلامة ابنه وسلامة الناس وأبناء الناس، فإنه يعرّضهم جميعاً للخطر بحماقته تلك. وأشهد إنه لوأحدٌ من أحقق من رأيته.

إن السيارة أداة للنقل، واستهتار أمثال هؤلاء

الآباء يجعلها أداة للقتل! فكيف يصنع الأب العاقل
للنجاة من هذا الخطر؟

أولاً أنصحك بأن تستبق الأمر (مع ابنك هذا
وسواه من الأبناء إن كان له إخوة أصغر منه)، فلا
تزال تتحدث عن مخاطر السيارات واستهتار الذين
يسمحون لأبنائهم بقيادتها وهم دون سن القيادة التي
يسمح بها القانون، وكلما سمعت بحادثة مؤلمة
كان بطلها مراهقٌ أو شاب صغير فاحرص على نقل
أخبارها والمبالغة في حكاية تفصيلاتها، فلعل في
ذلك كله وقاية وصرفاً للصبي عن التطلع إلى القيادة
وهو في هذا السن الصغيرة.

بعد ذلك عليك بالحرص والاحتياط، فلا تترك
مفاتيح سيارتك في متناول الصغار، وإذا كان من
عادتك -مثلاً- أن تعلق المفاتيح بجوار الباب (كما
يصنع كثير من الناس) فغير هذه العادة، واحرص
على أن تبقى المفاتيح في جيبك دائماً أو في غرفتك
التي لا يدخلها الأولاد.

ولكن هذا كله يوشك أن يكون غير ذي فائدة
إذا استبدَّ الشوق بالولد إلى القيادة وصارت السيارة
حلماً من أحلامه (كما هي عند كثير من المراهقين

واليافعين)، فماذا تصنع إذن؟ إليك الحل الأمثل:
فَرِّغْ هذا الشوقَ وحقق هذا الحلم على عينك وتحت
سيطرتك، فهذا خير من أن يحققه الغلام من وراء
ظهرك وبعيداً عن مراقبتك.

اسمح له بقيادة السيارة في ميدان آمن: في
شارع عريض مهجور، أو في ساحة مفتوحة لا يمر
بها أحد، أو في مكان منقطع عن الناس والسيارات.
اجلس أنت في المقعد المجاور واسمح له بالقيادة
بسرعة معقولة لا مبالغة فيها، وأبقِ حواسك متيقظة
وعينيك على الطريق أمامك وأنت مستعد للتدخل
عند الضرورة، بتعديل اتجاه المقود بيدك أو بالضغط
على الكابح برجلك، أو بأي إجراء مناسب عاجل.

هذا «التمرين» يمكنك أن تكرره مرة كل أسبوع
مثلاً، أسبوعاً بعد أسبوع، وأرجو أن يكون فيه تفريغ
كامل لشهوة القيادة في نفس الصبي بحيث لا يلجأ
إلى عمل ممنوع بعيداً عن الرقابة والإشراف فيتسبب
في كارثة لا قدر الله.



تدخين المراهقين

أنا الأخت الكبرى لعدد من الإخوة والأخوات،
وقد تعرضت لصدمة هائلة مؤخراً عندما
اكتشفت أن أخويّ المراهقين قد تعلما عادة
التدخين من بعض أصحاب السوء، فماذا عليّ
أن أفعل؟ كيف أعالج هذه المشكلة؟

قلبك مفهوم تماماً لأن التدخين آفة خطيرة
ولا ريب، ولعل أسوأ ما في هذه العادة هو قوة
استحواذها على مَنْ اعتادها وصعوبة التخلص
منها. وسوف تزداد صعوبة الخلاص منها كلما طال
الوقت، لذلك فإن أفضل ما يمكن عمله هو البدء
بالعلاج المبكر لعادة التدخين وعدم السماح لها
بالتجذر والسيطرة الكاملة على الضحية.

مع ذلك أوصيك باتباع أسلوب لطيف متدرج
في العلاج وعدم اللجوء إلى الضغط الشديد
والهجوم الصريح، لأن مثل هذا الأسلوب من شأنه
أن يتسبب في تشبث أخويك بموقفهما وبناء دفاعات
قوية تناسب هجومك القوي. ولنعتمد في العلاج
على مقارنة متعددة الوجوه، فنعالج المشكلة من
نواحيها الصحية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية،

بالإضافة إلى بعدها الشرعي.

ركزي -في حوارك مع كل واحد منهما- على الجوانب السابقة، فقولني مثلاً أنك تحببته وتخافين أن تصيبه الأمراض التي كثيراً ما تصيب المدخنين (وهي أمراض القلب والسرطان وأمراض الرئة بشكل رئيسي). ثم قل لي له أن التدخين يأكل أموال المدخن ويستهلك ثروته هائلة على مر السنين، ليحسب معك: لو دخن ثلاثين سنة مثلاً فكم يصرف؟ بضعة وعشرين ريالاً في اليوم مضروبة في ٣٦٥ يوماً ثم في ٣٠ عاماً (وهي أقل مدة يدخنها من ابتلي بالتدخين ولم يبذل جهداً مركزاً للتخلص منه). النتيجة: نحو ربع مليون ريال!

ثم ناقشي معه الأثر الاجتماعي لإدمان التدخين: إن المدخن مقبول في أوساط معينة ومنبوذ في أخرى، ويغلب أن تكون البيئات التي تنبذ التدخين أكثر تديناً والتزاماً وأكثر رُقيّاً اجتماعياً من الأخرى، فإلى أي الفريقين يحب أن ينتمي؟

وناقشي معه الأبعاد التربوية أيضاً: سوف سيتزوج غداً ويُرزق -بإذن الله- بأولاد وبنات، والأب قدوة لأولاده، فهل يرضيه أن يصبحوا

مدخين؟ وكيف سيقنعهم بأن لا يدخنوا إذا كان هو نفسه من المدخين؟

أخيراً ذكّريه بالآخرة وحثّيه على طلب رضا الله بالابتعاد عمّا فيه إثم، حتى لو لم يكن من كبائر الذنوب، وكما قال بعض الصالحين: لا تنظر إلى صِغَر الذنب ولكن إلى عظمة مَنْ تعصيه.

* * *

أما الأسلوب فلا بد أن يكون في غاية الرفق واللين، ويحسن أن تبدئي بإخباره أنك عرفت بالأمر ولكنك لم تعتبره أمراً عظيماً، فلا داعي لأن يخاف منك أو يتهرب من الموضوع بالإنكار أو المكابرة، فأنتما إخوة وسوف تبحثان الموضوع بأخوة ومحبة وليس بالسلطة والقهر والتخويف، ولن تُطلعي أحداً على هذا السر، وفي النهاية فالأمر إليه ولن يستطيع أحد إرغامه أو منعه بالقوة.

حاولي أن تمزجي الحديث بقدر كبير من العواطف الأخوية وإعادة التأكيد على أن دورك لا يتعدى النصح الأخوي، وحاولي -إذا وجدت منه ليناً وتجاوباً- أن تتزعي منه وعداً بأن يترك التدخين،

فقد تستفيدين من هذا الوعد في جولات لاحقة (لأن الحوار بشأن هذا الأمر يمكن أن يتكرر أكثر من مرة حتى الوصول إلى القناعة والالتزام بإذن الله).

أيضاً من المفيد أن تخاطبي كل واحد على حدة في جلسة مستقلة ولا تخاطبيهما معاً في جلسة واحدة، ويمكن أن تركزي أيضاً على استثارة عاطفة كل منهما على أخيه، فتقولي مثلاً: هل يرضيك أن يدخن أخوك إلى آخر عمره؟ إنك لو تركت التدخين لن تساعد نفسك فقط بل ستشجعه هو أيضاً على أن يحذو حذوك... وهكذا تضيفين عنصراً آخر من عناصر القوة إلى حملة الإقناع التي تقومين بها.

أيضاً يمكن إثارة نوازع الرجولة في نفسه: أنت تنتمي إلى جماعة (ثلة) من الأصحاب وربما كانوا كلهم مدخنين، فلماذا لا تكون أقوى منهم وأكثر رجولة وتكون قدوة لهم وسبباً في صرفهم جميعاً عن التدخين؟ سوف يكون هذا إنجازاً خارقاً ستذكره طول عمرك وترويه لأولادك في المستقبل، وسوف تفخر به بينك وبين نفسك لأنك عملت ما عجز عن عمله الآخرون.

أخيراً ركّزي على حقيقة مهمة جداً: إنكما ما

تزالان صغيرين وفي أول طريق التعلق بهذه العادة
القبیحة، وكلما بکرتما بمحاولة الإقلاع عنها ستكون
المحاولة أسهل، وإذا ما تأخرتما فسوف تكون
المهمة أكثر صعوبةً مع التقدم في العمر، فلماذا
تؤجلان عملاً ستقتنعان بضرورة عمله بعد سنوات
قليلة وتتعبان فيه كثيراً؟

أسأل الله أن يوفقك وأن يعافي أخويك من هذا
البلاء.

* * *

كيف أنقذ ابني من رفاق السوء؟

مشكله ابني باختصار أنني نقلته من مدرسته -بعد إقناعه- إلى مدرسه أرقى تعليمًا. وبعد النقل انضم إلى شلة سيئة، وحاول أن يتعد عنهم في هذا الصيف ولا يردّ على مكالماتهم، ولكنه سيواجههم عندما يعود إلى المدرسة بعد أسبوع، فكيف يتخلص منهم؟ علماً بأنه في السنة الثانية بالمرحلة الثانوية.

لا أعلم إن كنت قد تسلمت رسالتك في الوقت المناسب أم أنها تأخرت حتى تصلني؟ على أنني أدركت من لحظة قراءتها أن الوقت قصير وأن الجواب ينبغي أن يكون بين يديك اليوم قبل الغد لتتخذي القرار المناسب، فتركت ما في يدي وبادرت إلى كتابة الجواب.

أنا أصنّف المدارس -اعتماداً على مستوى فخامتها لا على مستواها العلمي- في ثلاث فئات: عليا ومتوسطة ودُنيا. وخلال مسيرة تعليم أولادي الطويلة تجنبت الفئتين الأولى والثالثة على الدوام. فأما الأولى فلأن مستواها العالي ينعكس في رفاهية طلابها وكثرة المترفين بينهم، والترف بيئة خصبة

لاختلال الفطرة وفساد الأخلاق، وأما الثالثة فلأن مستواها المتدني ينعكس في تفلت طلابها وقلة حظهم من التربية. وفي الحاليتين تزداد فرص التحلل الأخلاقي والبعد عن الدين في مجتمعات الطلاب.

وقد يقول الآباء والأمهات أنهم بذلوا الغاية في تربية ابنهم وتحسينه فلا يبالون في أي بيئة مدرسية وضعوه، لكن التأثير الذي تصنعه الرفقة في شخصيات أبنائنا كبير كبير، والصاحب صاحب، فإمّا صاحبٌ صالحٌ يسحب إلى طريق الجنة والفلاح، وإمّا صاحبٌ طالحٌ يسحب إلى طريق النار والبوار لا قدر الله.

لقد ربيتَ ابنَكَ على الدين والخير كما يبدو من رسالتك، فهمتُ هذا ضمناً من مقاومته لصحبة غير الصالحين وما بدا أنه يبذله من جهد للابتعاد عنهم وقطع الصلة بهم. فكوني عوناً له على أصدقاء السوء ولا تكوني عوناً لأصدقاء السوء عليه. لا تترددي في اتخاذ القرار: انقله من هذه المدرسة على الفور، وإذا كانت البيئة في مدرسته القديمة بيئةً صالحةً خيرةً فأعيد به إليها، فإن المعروف خيرٌ من المجهول، وما جُرّبَ أفضلُ ممّا لم يُجْرَب. وإن

لم تكن كذلك فابحثي له عن مدرسة صالحة فانقليه إليها.

وصلاح المدرسة لا يُحكَم عليه باتساع البُنيان وفخامة الجدران، ولا بالاسم الرنان والشعار الفتان، بل بأصالة الإنسان: بما لدى أساتذتها من علم ودين وطلابها من انضباط وأخلاق.

ولا تظني أن في هذا النقل خسارة علمية، فإنه -إن كان مرتاحاً في مدرسته ومتفهماً مع أساتذته ومنسجماً مع أصدقائه- فإن اهتمامه بالدراسة وسعيه إلى التفوق سوف يكونان أشدّ مما لو كان في مدرسة لا يحس بالراحة فيها والانتماء إليها. وهكذا يكسب الخير في الدنيا وينجو من الشر في الآخرة بإذن الله.

أسأل الله أن يلهمك الصواب، وأن يوفق ابنك ويجعله من الناجحين الفالحين في الدارين.

* * *

انحراف الابن بسبب الصحبة السيئة

هذه رسالة مؤثرة من أب يقول فيها أنه ربى ابنه على الأخلاق الفاضلة وعلى الدين القويم، وعلمه الأدعية وحفظه قدراً من القرآن، واصطحبه إلى المساجد لأداء الصلوات وإلى المجامع والمنتديات لسماع الدروس والمحاضرات، حتى إذا اطمأن إلى دينه وخلقه سمح لنفسه بأن ينشغل عنه بعمله وتجارته.

ومضت سنوات وكبر الغلام وصار شاباً في السابعة عشرة، وإذا بهذا الأب يكتشف ذات يوم أن ابنه الشاب قد انجرّ في صحبة جمع من رفقاء السوء، فدلوه على الفواحش وزينوها له وسلكوا به طريق الحرام. فلما اكتشف تلك الفاجعة كاد يفقد عقله، ثم انفجر غضباً وسبّ الولد وشتّم أصحابه وهدده أشد التهديد وأوعده أبلغ الوعيد، فرد الولد رداً قبيحاً وأظهر المكابرة والمهاترة، فلم يملك نفسه فلطمه وطرده، فغاب عن البيت أياماً لا يُعرف خبره، حتى بلغ القلق من نفس الأب والأم كل مبلغ، ثم عاد وقد ألقى عن وجهه ثوب

الحياء الذي اكتسب به من قبل تَقِيَّةً واستتاراً
وجَهَر بما كان يحرص على إخفائه. ويقول
هذا الأب في رسالته الحزينة أنه يشعر الآن
بالعجز ويشرف على الانهيار ولا يعرف ماذا
يصنع، فهل لمأساته من علاج؟

قرأت قصتك مرات، وأصْدُقك أنها أثرت في
نفسي تأثيراً بليغاً وتمنيت أن أعثر على حل سهل
يسير لها فما أفلحت، وإن يكن لها من حل فلن
يكون إلا بفضل الله وبرحمته وبالكثير من الدعاء،
ولن يكون حلاً سهلاً ولا سريعاً، فقد تفاقمت
المشكلة في وقت طويل ولن تُحلَّ إلا بمثله.

الذي أستطيع نصحك به هو أن تتدرج في
الخطوات الآتية، ولا أعدك بأن تنجح رغم ذلك،
فلا أدري كم من الزمن مضى على ابنك وهو في هذا
الطريق ولا أعلم مقدار استفحال الداء، لذلك أرجو
أن تجعل أمضى أسلحتك الدعاء. ابذل جهدك واتَّبِع
من هذه النصائح وسواها مما يشرح الله له صدرك،
ولا تملّ من الدعاء فإن الله لا يمل من سماعه، ادعُ
أن يهدي ابنك وأن يؤجج في نفسه شعلة الإيمان
التي خَبَتْ، وأرجو أن يستجيب الله الدعاء.

(١) ابدأ ببناء علاقتك بابنك من جديد. امنحه

جزءاً من وقتك وحاوره وتعرف إلى أفكاره وهواياته واهتماماته، وحاول أن تبدي الاهتمام والمشاركة فيما يمكنك المشاركة فيه من ذلك كله.

وهو سيحرص غالباً على تجنب الحديث في البداية ظناً منه أنه سيقوده إلى الاستماع إلى مواعظ أو إلى تأنيب، لكنه سيبدأ بالاسترخاء بعد اللقاء الثاني أو الثالث حين يجد أنك لا تمس النقاط الحساسة التي أثارت الخلاف بينكما ابتداءً. والاحتمال الأكبر أن يتجاهل هو نفسه الخوض في هذه النقاط، لكن لنفترض أنه صنع فماًذا سيكون ردك؟ كن مستعداً وابتعد عن أي موضوع من هذه الموضوعات على الفور وانتقل إلى المسائل العامة التي لا خلاف فيها.

(٢) أدخله إلى عالمك ما استطعت. اعرض

عليه أن يصاحبك في نشاطاتك التي تحس أنه يميل إليها، كبعض أنواع الرياضة التي يحبها (السباحة أو التنس مثلاً) أو زيارة بعض الأصدقاء الذين يمكن أن ينسجم معهم، بل يمكنك أن تنظم رحلة طويلة داخل البلاد أو خارجها تضم أفراد العائلة جميعاً... هذه الأفعال من شأنها أن تعيد ربطه بعالمه الأصلي

الذي ابتعد عنه حين ذاب في عالم الأصحاب
الفاسين. لكن تذكر: لا تُكرهه على أي شيء من
هذه النشاطات، شجعه عليها ورغبه فيها فحسب.

(٣) بعد ذلك ابدأ بالخطوة الأصعب: «بناء

العالم البديل». أنت تعلم أن المشكلة كلها جاءت
من تأثير رفقاء السوء الذين جرّوه معهم إلى عالمهم
الفاقد وتريد أن تبعده عنهم وتقطع صلته بهم،
لكن المؤكد أنه سوف يتشبث بأصحابه ويقاوم فصله
عنهم، فكيف ستسحبه إذن؟

أفضل طريقة هي إيجاد البديل المناسب:
مجموعة جديدة ترجو أن يرتاح ابنك إلى أفرادها
وينضم إليهم، فعندئذ سترك مجموعته القديمة
ويضحى بها في سبيل ذلك. وهنا مكن الصعوبة،
فمن أين لك بمجموعة كهذه؟ عليك بالبحث،
واسأل كل من تعرف واستعن بأي مصدر عون
محتمل. لو أن ابنك هذا أصيب بمرض خطير فتّك
لراجعت الأطباء وزرت المستشفيات وسألت أهل
الاختصاص، وربما حملته إلى بلد آخر لو أعيتك
سبل العلاج في بلدك، كل هذا الجهد (وأكثر منه)
لتنقذ حياته القصيرة في هذه الدنيا، فكم من الجهد

ستبذل لتنقذ حياته الطويلة في الآخرة من النار؟

(٤) المنهج الذي اقترحتك عليك في النقاط السابقة سوف يتعبك حتماً، لكن النتيجة المرجوة تستحق الصبر، فاصبر ريثما تحس أنك كسبت وده وثقته التي كان يوليك إياها في الزمان القديم، بعضها أو كلها. فإذا بدا لك أن الأمر صار كذلك فابدأ بافتعال بعض الحوارات القصيرة التي تعيد استذكار بعض الواقع المحمود الذي كان عليه من قبل، ومرّر -بشكل غير مباشر- تذكيراً بالله وتشويقاً إلى نعيمه وتخويفاً من عذابه. **إن شخصاً تلقى مثل التربية الجيدة التي أشرت إليها لا بد أن يكون الإيمان قد زرع في نفسه وتجدّر عميقاً، فلعل مثل هذه التذكيرات الرفيعة الرقيقة تبعثه حياً من جديد.**

(٥) سوف يحتاج إليك ذات يوم، قَرَبَ ذلك اليوم أو بَعُدَ، فإذا جاءت هذه اللحظة فكن مستعداً لها: لبّ طلبه وأنجده، سواء أكانت حاجته مادية أم معنوية (بشرط أن تكون حاجة في حلال). ولكن لا يكن عطاؤك مجرداً بل غلّفه بهذه الموعظة المهمة، قل له: "أنت احتجت اليوم إلى معونتي فوجدتني أمامك، وغداً تحتاج إلى معونة مثلها أو غيرها فلا

تجدني أو لا أستطيع أنا ولا غيري أن يعينك، فمن يعينك إلا الله؟ سوف تحتاج إلى الله شئت أم أبيت، الآن أو غداً أو بعد غد، وكلُّ آت قريب، فكيف سترفع يديك إلى السماء فتدعو مَنْ أغضبتَه، وكيف ترجو الإجابة ممن نسيتَ بِرّه وأعرضت عن طاعته واجترأت على معصيته؟" **وإذا برقت بارقةً من توبة أو ندم فتمسك بها، ذكره برحمة الله وبواسع رحمته وسرعة استجابته للأوابين، لعله أن يكون منهم ومن التائبين المستغفرين.**

(٦) إذا مضى الوقت ولم تقترب من الحل، أو وقفت بك الأمور عند واحدة من الخطوات السابقة فلم تنفتح التي بعدها، أو ساءت الأحوال وتقدم الابن فقطع في طريق المعصية شوطاً آخر لا قدر الله، فلا أجد لك دواء غير الكيِّ! فإن الرفقة السيئة لا تأتي إلا من المدرسة التي وضعته فيها ومن المحلّة التي تسكن فيها، وعندئذ فقد وجبت الهجرة. انج بنفسك من أن تُسأل ذات يوم: فيم كنت؟ كيف ضاع ابنك؟ فتقول: جذبه أهل السوء في مدرسته أو في الحي، فيقال لك: ألم تكن أرض الله واسعة؟

أنت تعرف قصة الرجل الذي خبرنا النبي ﷺ

خبره، ذلك الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم أراد أن يتوب، فماذا قال له الرجل العالم؟ قال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن فيها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم، **ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء.**

إذا وصلت فعلاً إلى هذا الخيار، ولم تستطع أن تبعد ابنك عن رفاق السوء وصارت المخاطرة بالآخرة مخاطرةً جادة لا هزل فيها، فهل أنت مستعد لدفع هذا الثمن: الانتقال من الحي الذي تقيم فيه إلى غيره أو من مدينتك إلى مدينة أخرى؟

إنه ثمن عظيم لأنك ستبدأ من جديد، في العمل والسكن وتكوين العلاقات الاجتماعية وغيرها، وبعد ذلك كله لا يستطيع أحد أن يضمن نجاح الخطوة. إنها نصيحة الرجل العالم لا نصيحتي أنا، وهي خطوة صعبة جداً وقد لا تأتي بالحل حتماً، لكن الحل فيها وارد والشفاء متوقع. نعم، هذا كيّ، والكيّ آخر الدواء كما قال العرب المجربون.



شاب أفسده الدّلال

أخي في التاسعة عشرة من العمر، وقد نشأ في عائلة ملتزمة محافظة ثرية وأُغرق بالدلال من الجد والجدة لأنه أول حفيد ذكر في العائلة، فكانت طلباته كلها تنفّذ دون اعتراض. وكان كثير المشاكل في صغره، وعندما كان عمره ستّ سنوات تعرض لاعتداء جنسي من أحد الجيران. لا أعلم ما هو ردّ فعل والدي لأن الموضوع كان سراً وعرفته مصادفة، ولكن بعد سنتين أدخل والدي ولد الجيران إلى السجن وعلمت أن أخي اشتكى لوالدي من تحرّشه به ثانية. كان أخي عدوانياً جداً وعندما كان عمره أربعة عشر عاماً كان يكره البنات جداً، كان يكرهني أنا وأخواتي ويضربنا ويكره والديّ، وأحياناً كان يمد يده على والدتي، وتكرر أن يضربها ثم حصلت له مشكلة فلم يعد يضربها بعد ذلك.

كانت له شخصية الولد البدوي الذي يلبس الثياب العربية ويحرّم لبس البنطال على نفسه، مع العلم بأنه كان غير ملتزم ولا يحافظ على الصلاة، ثم تغير وانقلبت شخصيته وصار

يلبس بناطيل ويكلم الفتيات. في البداية كان الموضوع سرّاً، ثم أخذ يتكلم أمام أمي، فاتصلنا أنا وهي بالفتاة ونصحناها فأخذت الفتاة تسبنا بكلمات بذيئة! وحالياً هو يطلب من أبي سيارة رياضية سعرها باهظ ووالدي رفض، ليس فقط بسبب السعر ولكن بسبب سوء معاملته لأمي ولأنها سيارة خطيرة من الممكن أن تقضي عليه بسبب سرعتها، فهدد أبي: إما السيارة أو أترك المدرسة، وهو في آخر صف في المدرسة الآن. حاول والدي إقناعه بدون فائدة، فاتخذ معه أسلوب التطنيش.

جميع أفراد العائلة يدعون له ويحاولون نصحه، ولكن النصيحة معه لا تفيد. ذهب به والدي الى أحد الشيوخ ونصحه وذهب به إلى أحد الأقارب ولكن لا فائدة. وعندما يضربه والدي ينتقم بتكسير كل شيء موجود بالغرفة، يكسر التلفزيون واللابتوب ويخرب الستائر وأي شيء يجده أمامه. ثم صار عندما يضربه والدي فإنه يحاول الرد بضربه أحياناً، وقد أصيب والدي بالضغط بسببه فذهب به إلى قسم الشرطة ليتأدب، ولكن الشرطي قال

له من الأفضل أن تحافظ على ابنك في المنزل
ولا تدخله في مكان كهذا مليء بالمجرمين ،
فتردد والدي وألغى الفكرة. والدي طيب جداً
جداً وهو بارٌّ بوالديه ، فما سبب خروج ابن
كهذا في العائلة؟ وهل توجد طريقة لإصلاحه؟

- ١ -

من عاداتي -كلما وصلتني مشكلة- أن أبحث
عن النواحي الإيجابية فيها لأمسك بطرف خيط
الحل ، لكنّ يؤسفني أنّي لم أجد شيئاً من ذلك في
هذه المشكلة تحديداً. لقد رزقكم الله هذا الغلام
فكان طفلاً صغيراً طرياً يمكن تشكيّله على أي
شكل شئتم ، فأبيتم إلا أن تفسدوه بالدلال والمال
والإهمال ، فمُنح أولاً من الدلال ما لا تستقيم معه
تربية ، ثم تُرك بلا مراقبة فاعتدّي عليه ، وبلا توجيه
فنشأ بعيداً عن الدين ولا يعرف الصلاة ، ثم أُعطي
من المال ما يستعين به على الفساد والإفساد ، كل
ذلك وهو يؤذي هذا ويضرب تلك ويعتدي على
أولئك ، ولا يحس أحدٌ منكم بأن المسألة خطيرة
وأن الوضع يحتاج إلى علاج ، باستثناء محاولات
ضعيفة باهتة لا وزن لها في مقابل هذا الوضع

الكارثي المستمر، كضربه من قبل أبيه أحياناً (ومتى كان الضرب علاجاً لشاب كبير بلغ مبلغ الرجال؟) أو اصطحابه إلى شيخ أو قريب. ثم تسألين: والدي رجل طيب، فلماذا يلقي كل هذا العناء؟

إن حياتنا -يا بنتي- هي ثمرة أعمالنا واختياراتنا. نعم، الله يبتلي المؤمنين بأنواع الابتلاء ليكفر ذنوبهم ويرفع درجاتهم، ولكن هذا الابتلاء من باب الغيب الذي لا قبل لنا بكشف سرّه وسبر غوره ولا نملك إلا التسليم له والرضا به، لكننا لا نفعل ذلك قبل أن نتهم أنفسنا ونبحث عن محل التقصير فيما نتخذه من قرارات واعية وفيما نسلكه من سبل منحنا الله فيها القدرة على الاختيار، ثم نُجزي على الحسّن من الأعمال بالحسّن من النتائج وعلى السيئ من المقدمات بالسيئ من الثمرات.

واسألي نفسك الآن: هل أحسن أبي تربية ولده؟ هل أصاب هو وأُمُّك وجدّاه وأنثُنَّ -أخواته- بدلاله وإجابة طلباته والتغاضي عن اعتداءاته مذ كان طفلاً صغيراً إلى أن غدا فتى يافعاً؟ أكان ذلك كله صواباً أم كان من الخطأ البين الذي لا يحتاج إلى برهان؟

لن أنفي الأثر السيئ الذي لا بد أنه نشأ عن تلك الحادثة الفظيعة التي ذكرتها، وسوف أعود إليها لاحقاً، لكنها ليست مبرراً للسكوت عن الخطأ، ثم إنها جاءت في وقت ما من حياته بعدما بدأ الدلال والإفساد ولم تكن هي بداية القصة.

ربما بدا كلامي قاسياً، لكنه كذلك ينبغي أن يكون، وكذلك كان ينبغي أن يكون ردكم على أول انحراف بدا من الصبي الصغير وهو يمدّ يده على أخواته الكبيرات أو على أمه بالضرب والعدوان.

إنني ليقشعرّ بدني وتنتفض جوارحي كلما رأيت طفلاً يضرب أمه وهي ترد بالسكوت والابتسام، وأسرح في أفكاري فأرى بعين الخيال ذلك الصبي الصغير وقد صار رجلاً يضرب أمّاً عجوزاً ضعيفة وهي تجأ إلى الله بالاستغاثة وتلجأ إليه بالدعاء، ولا تعلم أنها هي التي أوصلت نفسها إلى هذا المصير من اليوم الذي رضيت لطفل صغير بأن يمد عليها يداً صغيرة بالضرب، ولم تحسب حساب الأيام التي تجعل الصغير ذا اليد الصغيرة كبيراً ذا يد كبيرة، ولم تدّر أن استمرار الخطأ والرضا به في أول العمر قد يجعله مقبولاً إلى آخر العمر لا قدر الله.

هذا كله لا أقوله لأزيد أملك أو أَلَمْ أملك وأبيك وأخواتك، ولكن ليقراه غيرك فينتفع به بإذن الله. فخذوا حذرکم يا أيها الآباء، بل انتبهن يا أيتها الأمهات خاصة، فإنكن أكثر من يرتكب هذا الخطأ. ولا أزعم أن كل طفل ضحكت له أمه وهو يضربها صغيراً سيغدو فاجراً عاقاً يضربها كبيراً، فإن أكثر الأمهات يقومن هذا السلوك من بعد، لكنهن يتعبن في تقويمه تعباً يزيد أو ينقص بحسب تقدم العلاج أو تأخره، وهو تعب كُن في غنى عنه في كل الأحوال لو أنهن لجأن إلى الوقاية المبكرة بدلاً من العلاج المتأخر.

- ٢ -

أعود إلى مشكلة أخيك، وقد مهّدتُ فقلت أنها مشكلة معقدة، بدأت بخطأ مركّب تبعته حادثة مروّعة، ثم عقدتها السنوات التالية بالعلاج الخطأ. فما هو الحل الآن؟

الخطوة الأولى التي لا بد من تأكيدها واعتبارها المفتاح لكل ما بعدها: توقفوا عن إجابة طلباته، توقفوا عن تلبية رغباته، توقفوا عن تمويل انحرافاته. توقفوا عن ذلك كله الآن وعلى الفور، ولا تتأخروا

لا يوماً ولا بعضَ يوم.

لا تمنعوا عنه الضروريات ولا تقطعوا عنه المصروف الذي لا بد منه - في الحد الأدنى - لأمثاله من الشبان والأقران، فإن الضغط الزائد قد يولد الانفجار، وفي الإخراج إخراج، فإنه ربما لجأ إلى العنف أو السرقة لا سمح الله، ولكن لا تزيدوا عن هذا الحد الأدنى ولا تنساقوا مع رغباته وطلباته. إنه يشعر بالضعف فيهدد بترك المدرسة. حسناً، فليتركها، هذا هو الجواب الذي ينبغي أن يسمعه منكم بكل هدوء وبرود واسترخاء. ولعله يهدد بترك البيت أو بقتل نفسه أو بغير ذلك من الترهات التي يبتز بها الأولاد آباءهم الضعفاء، فليكن الجواب واحداً دائماً: اصنع ما شئت. وأطمئنكم مسبقاً، فإن واحداً من مئة ألف ينفذ وعيده، فإن كان هو ذلك الواحد (وهذا بعيدٌ بعيد) فليكن ما يكون ثم لنبحث عن أفضل علاج، وإن يكن من بقية المئة الألف فهذا ما نريده.

الخطوة الثانية هي منع العنف بأي شكل، بالتهديد بالحرمان من المال ولو القليل منه، أو حتى باستدعاء الأمن (الشرطة) للتدخل.

إن استمرار العنف والتحطيم والأذى غير مقبول أبداً، ولا يستطيع أحد أن يضمن أن لا يصل الأذى إلى إلحاق عاهة دائمة بأحد أفراد الأسرة، فهم كلهم أضعف منه اليوم بعدما صار رجلاً قوياً: الأب الكبير والأم المسكينة والأخوات الضعيفات. ولو أن ثورة من ثورات الجنون انتهت بجريمة قتل فلن أستغرب أبداً، لأن العنف وفقدان السيطرة على الأعصاب بالصورة التي وصفتها يقلل المسافة بين ما يحدث من إيذاء بالغ وبين القتل نفسه!

ثم إن الرجل البالغ العاقل الذي يضرب أمه يكون قد قطع ثلاثة أرباع الطريق إلى قتلها، لأن علاقة المرء بأمه علاقة خاصة استثنائية من العاطفة والمحبة، حتى ليستثقل الإنسان العاقل أن يرفع في حضرة أمه صوته أو يعبس بوجهه. إن بينه وبين هذه التجاوزات الخفيفة حواجز من المهابة والحب والاحترام، فما بالك بالضرب؟ وثقي أني لا أبالغ، فإن كل الحوادث التي قتل فيها بعضُ الأبناء والديهم قام بها من كان سلوكهم مع آبائهم كسلوك أخيك مع أبويه، وهؤلاء -لحسن الحظ- قلة في الناس.

وحتى لو أن هذا الاحتمال كان بعيداً (وأرجو

أن يكون كذلك) فإن احتمال القتل غير المباشر قريب، فالأب الشيخ والأم العجوز لن يحتملا هذا الضغط طويلاً، وربما انهارا كلاهما أو أحدهما بسكتة قلبية أو جلطة في الدماغ لا قدر الله، ويكون هو قاتلهما -عندئذ- كما لو أنه قتلتهما بالمسدس سواء بسواء.

- ٣ -

ستقولين: رأي طيب، نوافقك ونريد لهذا العنف ولهذا الأذى أن يتوقف، ولكن كيف؟

أولاً لا بد من وصول الرسالة الواضحة: لن تحصل على شيء منا بهذا الأسلوب. لو أنه ثار مئة مرة وحطم ألف كرسي وحاسوب وتلفاز فلن يحصل على شيء قيل له من قبل أنه لن يحصل عليه. "هذا الأسلوب عقيم، فجربْ غيره إذن"، هذه هي الرسالة، وسوف يستوعبها مع إصراركم وثباتكم على موقفكم الحاسم ولو طال الزمن.

ولا بد مع هذا الموقف القوي من تقديم البديل: "اجلس وتجاوز بأدب ولباقة كما يصنع الإنسان السوي، الإنسان العاقل، الإنسان الخلق المتحضر" (وقد تجنبت صفة «الإنسان المتدين» لأنه

لن يُؤتى من قِبَل هذا الخطاب الآن كما فهمت من وصفك للمشكلة). ولكن يُقال له أن انتبه: فإن الحوار العاقل لا يعني رضوخ طرف لطرف واستجابة واحد للآخر، بل يعني فرصةً يملكها كل طرف لإقناع الآخر بالحجة والمنطق، وربما كانت نتيجة اللقاء في منتصف الطريق أحياناً أو تنازل أحد الطرفين عن رأيه لصالح الطرف الثاني في أحيان أخرى.

هل سيستجيب لمثل هذا الأسلوب في الحوار؟ أغلب ظني أنه سيفعل إذا رأى منكم موقفاً صارماً موحداً يتسم بالحسم والهدوء معاً، ولكنني أكاد أجزم بأنه لن يصل إلى هذه النتيجة إلا بعد صبر وعناء طويل، فاصبروا ولو طال الوقت.

ثانياً: ابحثوا عن العناصر ذات التأثير، فكل واحد من أبناء آدم له مفتاح من الأساليب أو مفتاح من الناس. قد يكون له صديق أو قريب له عليه دالة أو تربط بينهما علاقة قريبة تجعله قادراً على التأثير فيه، فاستعملوه من وراء ستار (بعد أن تتفاهموا معه، أي مع الشخص المؤثر) على خطة يقتنع بها ويعلم أنها لمصلحة صاحبه الشاب لا لقهره أو خداعه مثلاً. هذا من حيث المفتاح المؤثر من الناس، أما من

الأساليب فأنتم أعرف بآبنكم؁ فبعض الناس مفتاحه التآوف والتهدفد بشيء يخافه؁ وقد يكون التلوف بالشرطة والسجن مناسباً فف مثل هذه الحالة لو أنه كان من هذا الصنف من الناس. آآرون مفتاحهم الرقة والطف؁ أو الاستعطاف وإثارة المشاعر الإفبابفة؁ أو الترففب بمكافأة أو مثوبة من نوع ما؁ فآربوا معه الأسلوب الأمثل الذي فوافق شخصففة التي تعلمون.

ثالثاً: اتفقوا بفنكم على خطة الحل؁ فلو أن أحداً منكم آالفها -فلان فف موضع الشدة أو رق فمفح فف موضع المنع (كالآد والآدة اللذان أشرت إلفهما)- فقد فسدت الخطة كلها؁ لأنه سفضر ببعضكم ببعض وفآصل على ما فرفد.

رابعاً: ابآثوا عن صآبة صالحة من أهل الالف؁ من الذين فقاربونه فف العمر والاهتمامات والهوافات؁ فلعلمهم ففآآون فف استمالته إلفهم وضممه إلف عالمهم. إذا وآدتم بعضاً من هؤلاء فاشرآوا لهم حالة وارآوهم أن ففآربوا منه وأن ففربوه إلفهم؁ فإن التففن (أعنف التففن الآقفف الصاءق) هو الحل الكامل والنفهاف لهذا الانآراف كله.

لكن هل تجدون قريباً منكم مثل هؤلاء الرهط من أهل الدين والقرآن؟ أرجو الله أن تجدوا، فلن تخلو الأمة من المحتسين والدعاة، على ما يلقون من حربٍ وصدٍّ من كثير من الناس. هؤلاء هم الترياق للمرض كله لو أنهم وافقوا على المساعدة وصمموا على العمل، فيا ليتكم تجدونهم، ويا ليتهم يفعلون!

- ٤ -

أخيراً ومع هذا كله: أظن أننا بحاجة إلى علاج نفسي، ولعله يتجاوز الإرشاد النفسي إلى المعالجة بالعقاقير، وهذا أمر يقرره الطبيب، فراجعوا طبيباً حاذقاً وصفوا له حالة أخيك وأحيطوه بكل صغيرة وكبيرة، وسوف يشير عليكم بما هو نافع وصواب بإذن الله. وإنما ذهبت إلى هذا الاحتمال بسبب الحادثة المؤلمة التي أصابته في صغره، وهي من النوع الذي يترك في النفس ندوباً يصعب شفاؤها، ولما ذكرته من كراهيته الشديدة للفتيات (للجنس الآخر).

هذه الكراهية تنشأ في مجتمعاتنا أحياناً بسبب النظرة الدونية للأثني، وهي نظرة جاهلية لا تليق

بمسلم لكن مسلمين كثيرين لم يَسلموا منها للأسف ،
بل حملوها من جاهليتهم التي أنقذهم منها الله بنبيه
الكريم ﷺ وتوارثوها عبر القرون ، والدين العظيم
منها براء. قلت أن هذه النظرة سبب يفسر كراهية
كثير من ذكورنا -رجالاً كباراً وشباناً يافعين- للأنثى
أو استعلاءهم عليها، لكن الذي بدا لي من وصفك
لعائلتك جعلني أتخيل صورة اجتماعية وعائلية لا
محل فيها لهذه النظرة التقليدية، ومن ثمّ ذهبت إلى
التفسير الآخر.

هذا التفسير يمكن أن يقطع به الطبيب النفسي
الذي أوصيتك بمراجعته، وهو حالة معروفة شائعة
بين ضحايا الاعتداءات الجنسية، حيث تتسبب
تلك الاعتداءات (ولا سيما ما يأتي منها في مرحلة
متقدمة من العمر) بكراهية عارمة مَرَضِيَّة للأمر كله
بأطرافه جميعاً: الزواج والإنجاب والجنس الآخر.
وبما أنني غير متخصص ولا أنا مطلع على أخيك
اطلاعاً مباشراً فلن أجازف بالجزم بأي احتمال، لكنه
يبقى احتمالاً وارداً ويظل الطبيب النفسي هو المؤهل
بعلاجه وليس أي واحد من المستشارين، ولا سيما
إذا كان المستشار يقدم مشورته من بعيد.

لعلي لم أقدم الحل الكامل لهذه المشكلة
المعقدة، لكن أرجو أن يكون فيما اقترحتّه بعض
النفع على الأقل، وأدعو لكم بالتوفيق من الله فهو
القادر على إزالة هذه الغمة، فأكثروا من الدعاء
والابتغال (ولا بد أنكم قد فعلتم) ولا سيما الأب
والأم، فإن دعاءهما للولد الضالّ بالهداية خيرٌ من
دعائهما عليه بالعقاب.

* * *

المحتويات

٥	مقدمة
١١	غيرة الطفل من أخيه الرضيع
١٦	خوف الأطفال
٢٠	اختيار اللعبة المناسبة للطفل
٢٢	معالجة ملل الطفل من لعبه
٢٦	الدلال والتمرد
٢٨	العناية بتوأم
٣٠	خطورة تفضيل بعض الأبناء
٣٣	سلطة الأجداد
٣٦	مراعاة قوانين الآخرين
٣٨	تسلط الأخ على أخواته البنات
٤٣	ماذا نصنع مع الفضائيات؟
٥٠	نوم الطفل في غرفة والديه
٥٤	الاستلقاء مع الطفل قبل النوم
٥٧	علاج الطفلة من مشكلة حساسة
٦٤	مشكلة حساسة أخرى

٧١	 قسوة لا يجوز السكوت عنها
٧٥	 حل الواجبات المدرسية نيابة عن الصغار
٧٩	 التوافق الاجتماعي في المدرسة
٨١	 تعرض البنت للظلم في المدرسة
٨٤	 إكراه الصغار على حفظ القرآن
٨٨	 فرض اختصاص جامعي على الشاب
٩٢	 انفعالات المراهقين الصاخبة
٤٥	 كيف أتفاهم مع ابني المراهق؟
٩٧	 الحدود الزمنية للمراهقة
٩٨	 هوس المراهق بقيادة السيارات
١٠١	 تدخين المراهقين
١٠٦	 كيف أنقذ ابني من رفاق السوء؟
١٠٩	 انحراف الابن بسبب الصحبة السيئة
١١٦	 شاب أفسده الدلال

استشارات أُسرِيّة

مجاهد مأمون ديرانية

مُشكلات تربيّة



الخيال للنشر والترجمة
AJITAL Publishers

استشارات أُسرِيّة

مجاهد مأمون ديرانية

مُشكلات زوجيّة



الخيال للنشر والترجمة
AJITAL Publishers

استشارات أُسرِيّة

مجاهد مأمون ديرانية

مُشكلات شبابيّة



الخيال للنشر والترجمة
AJITAL Publishers

استشارات أُسرِيّة

مجاهد مأمون ديرانية

مُشكلات اجتماعيّة



الخيال للنشر والترجمة
AJITAL Publishers



موقع المؤلف الإلكتروني
(وفيه جميع كتبه المنشورة)

<https://mujahed-dira.com>

قناة المؤلف في تلغرام
(ملفات الكتب متاحة فيها أيضاً)

https://t.me/mujahed_dira

حساب المؤلف في فيسبوك

<https://www.facebook.com/MujaDira>